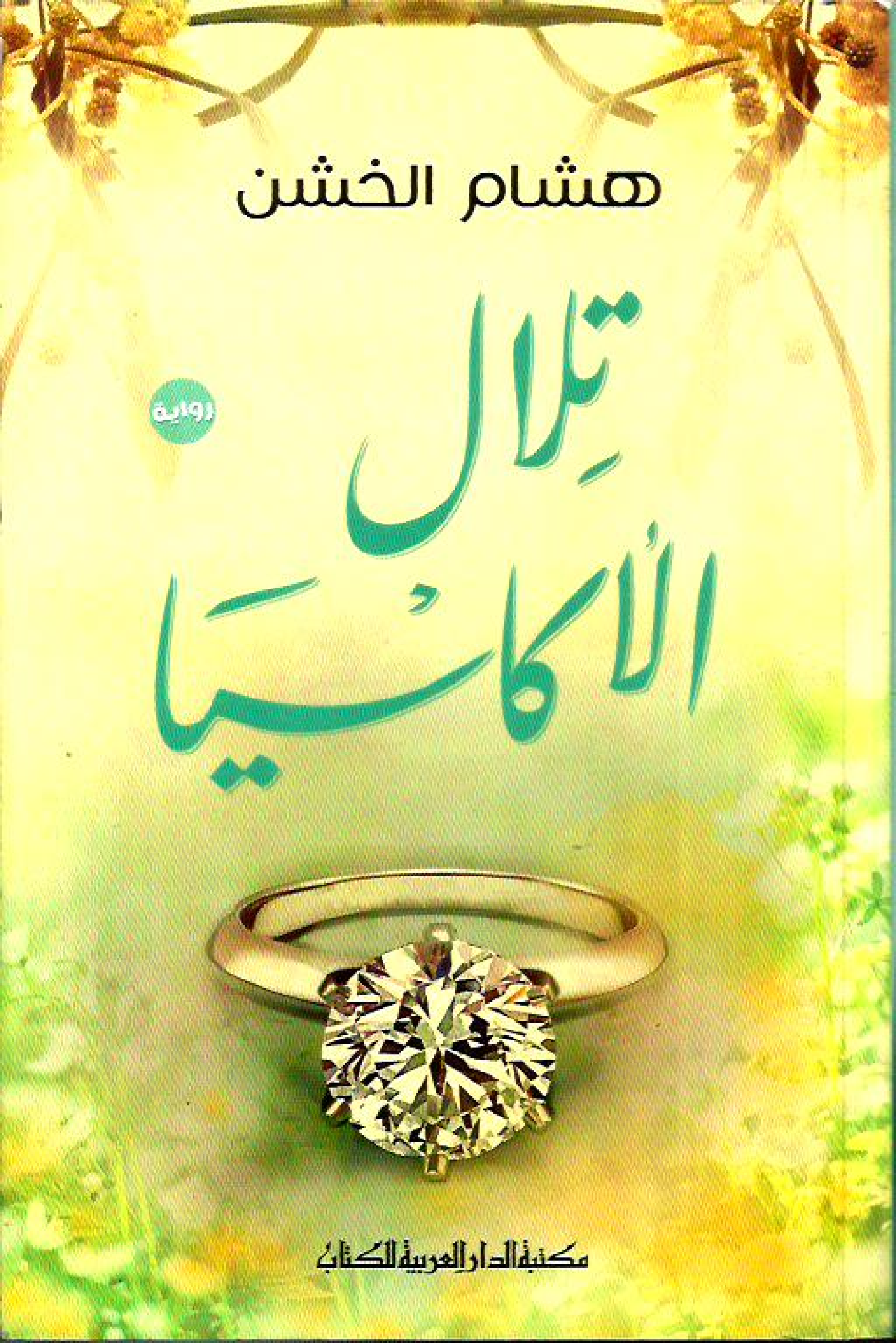


هشام الخشن
تلال الأكاسيا
رواية
مكتبة الدار العربية للكتاب


رواية
تلال الأكاسيا

الخشن، هشام.
تلال الأكاسيا: رواية / هشام الخشن .- ط 1-
القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، 2016.
192 ص؛ 20 سم.
تدمك: 1 730 - 293 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان 813
رقم الإيداع: 23056 /2015

مكتبة الدار العربية للكتاب
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + – ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: ربيع أول 1437 - يناير 2016م

هشام الخشن



مكتبة الدار العربية للكتاب

إهـداء

إلى من لا تكتفي الذاكرة من عناقهم

نرتحل في بحور الحياة لنرسو

في النهاية حيث بدأنا

1

- أحبك.

هكذا همست من بين أنفاسها اللاهثة في أذني.. لم تكن كلمة تلك التي سمعتها منها، بل لحنًا مسَّ الشغاف كلها. كلمة أرغب في أن تكون آخر ما أتذكر عند تركي الحياة، أو عند رحيل الذاكرة عني وتركي بلا حياة. استشاطت ذكورتي وعادت إليها فتوتها، ذاكرة مصحوبة بابتسامة واسعة، محت شجن ما كنت ظننت أنه فاتني بلا عودة.. من بين أحضانها خطفت أنظاري رسمتها المعلقة على الحائط الجانبي، بشعرها المسترسل كستنائي اللون بشبهة احمرار، وقد تعمد من رسمها أن يبرزه.. سمتها المميزة. ملأني جمال شبابها المرسوم واتجه نظري من بعده إلى البرواز الفضي الداكن، الموضوع على المنضدة المجاورة للأريكة، الذي احتضن الصورة الوحيدة، التي وجدناها تضمنا معًا على خلفية شتاء أوروبي. صورة تتضح بها علامات الزمان، ولكنها تنضح حياة وسعادة ودفئًا يغطي برودة الجليد من خلفنا.. أحيطها فيها بذراعيّ وأحسن الالتصاق بها كمن يعرف مقدمًا المكتوب علينا من فراق.

بدأ قلبي يدق بعنف؛ ليخطرني أن الوقت قد أزف للتباهي بعنفوان تصورته غادرني أبدًا. في تلك اللحظة نفسها بدأ طرق متوالٍ على الباب يزيح تلك النشوة التي كادت تغمرني.. خبطات متتالية أعادت تشغيل

عقارب الزمن التي ظننتها متوقفة. عناد وإصرار دون هوادة ممن قرروا اقتحام خلوتنا، توَّجه صياح صوت أجش:

- سارة... سارة..

أغمضت عينيَّ متجاهلًا الضجيج المستمر، ومستبعدًا أن يكون الأمر إلا حيلة جديدة، اعتادها ذهني في الآونة الأخيرة.لكن انتفاض سارة من بين يدي نقلني إلى أنه ليس خيالًا بل واقعًا يفيقنا مما كنا نختبر.

تزايد عزم قارعي الباب واشتد، وصدح الصوت الأجش من جديد:

- افتحي يا سارة..

فقدت إحساسي بالمكان والزمان، وتسمرت نظراتي على وجهها والهلع الذي ملكها.. كانت واقفة أمامي مشدوهة لا تستطيع حراكا، ويكاد قلبي من قوة ضرباته ينتفض قافزًا إلى خارج صدري. سكون لحظي عمَّ المكان قبل أن يعودوا إلى طرق الباب بقسوةٍ حتى كاد ينخلع. هذه المرة خلته يزأر على إيقاع طرقاتهم:

- افتحي... شرطة..

سارعت بارتداء ملابسها، ومدت يدها تنتشلني من ذهولي فهببت واقفًا.. جمعت هي ثيابي، وبيد حانية أعطتها لي وجعلت اتجاهي صوب غرفة نومنا. وجدت نفسي وحيدًا في وسط الغرفة، يأتيني صوت خطواتها وهي تقطع الطرقة القصيرة المؤدية لباب الشقة. بي رعشة وأنا أعيد وضع الملابس على جسدي. تحيرت عما إذا كان ارتعاشي رهبة أم من العلامات الموعودة لما شخصوني به. بطء شديد وحيرة التبساني، وأنا أعيد ملبسي إلى حاله وقد غدا ما هو بديهي مستنزفًا للذاكرة في كيفيته. حين ظننت أني

انتهيت، وجدت نفسي ثابتًا مكاني، لا أقدر على حراك، وقد بدأ صياح يأتيني من الخارج، يعلو فيه صوت سارة بنبرات ليست من عاداتها.

أنهيت مفاوضاتي الذهنية على عجل لتصدر الأوامر لساقيَّ بالخروج، حيث احتدم النقاش بينها وبين من أنهوا بدقاتهم سكينة حب كنا ننهل منه قبل لحظات.

- جئنا نتسلم المذكور..

- المذكور... المذكور... أتريد الشرطة أن تتسلم زوجي؟

- نعم، وهذا هو الأمر مكتوبًا.

- أي جريمة ارتكبها؟

- لم يرتكب جريمة... هو محجوز لديك ضد إرادته.

- زوجي محجوز ضد إرادته؟! في بيته!!

- ليس زوجك! طليقك.

بُهتت سارة وأُلجِمَ لسانها.. ولما انفك من جديد، رددت فقط:

- طليقي؟!

لم يكن لدى محاورها أي كياسة، أو أنه استمرأ اللكمات الصادمة التي كان يوجهها إليها؛ إذ أردف قائلًا:

ثم غلَّف تهديدًا في كلامه:

- نعم، معنا قسيمة طلاقك يا أستاذة.

ثم يعود مضيفًا:

- لا نريد فضائح يا هانم.

المسكينة من وسط ترنحها لم تملك إلا ترديد ما تسمعه:

- قسيمة طلاقي؟!

- مضبوط، وولي أمره موجود لِتَسَلُّمِهِ؛ لذا فإن عدم تسليمك له يصبح احتجازًا ضد الإرادة..

يسكت برهة، قبل أن يناولها القاضية:

- أو ممكن نعمل قضية زنا باعتبار أنكما مطلقان... الأستاذ فاقد الأهلية نتيجة مرضه يا سارة، والقانون يمكِّن الوصي عليه من حمايته بكل السبل.

ارتخت يد سارة التي كانت تمسك الباب الموارب، فانفتح عن آخره ليظهر لي الوقوف على جانبه الآخر.. توسطهم من أدركت أنه مصدر الكلمات الكلامية المتتابعة، ومن ورائه ثلاثة أو أربعة رجال، يحتلون بسطة السلم بزي الشرطة الشتوي الأسود. مناقِشُ سارة كان قصير القامة ببدلة وصديري، يتضح جليًا من حالتهما أنه قلما يغيرهما. وجهه لا ود فيه، وعلامته المميزة أسنان بدأ اصفرارها يستحيل سوادًا. أدركت من تباهيه بفصاحته أنه محام من الدرك الأسفل، الذين لا يتورعون عن إتيانِ أفعال تجافي الإنسانية، في سعيهم لنصرة موكليهم. من خلف المحامي ورجال الشرطة، اشرأب وجه مألوف تعودته على حاله دائمًا خاليًا من المشاعر.. استبنته جامدًا مرتديًا ألوانه التي طالما استساغ رماديتها.. لم يكن لديه أدنى حرج مما نحن بصدده، بل على خلاف ذلك، أظنه ود أن يفصح عن استمتاعه بالمجريات لو أن له مقدرة على إظهار خلجاته.. لا أدري إن كانت صيحتي وصلته أم أنها كانت مكتومة بداخلي:

- لماذا يا سامي؟

كرهت الرجفة التي ملأت صوتي، وأنا أصيح:

- لم أطلقها... هذا تزوير..

تحولت النظرات إليّ:

- هذه زوجتي... لا تكلمها؛ كلِّمني أنا... لم أطلقها..

أنظر إلى سارة باستجداء:

- أقسم إنني لم أطلقك... صدقيني..

اتجهت نظرات الجميع نحوي قبل أن يلتفت المحامي تجاه سامي، الذي أخذ لحظة قبل أن يومئ له، فأطلق المحامي مزيدًا من طلقاته:

- يا أستاذة، نحن لا نريد فضائح هنا في بئر السلم. من فضلك نحن هنا بقوة القانون..

- لقد سمعته يقول لك إنه لم يطلقني، وإنه مازال زوجي..

- إن كلامه لا يعتد به، وأنت بالتأكيد تعلمين حالته. ثم إذا كان لم يطلقك، فما هذه القسيمة إذًا؟!

أنهى كلامه، وهو يهز قسيمة الطلاق في وجهها بثقة وصلف. أفقدتني كلماته أي عزة نفس تبقت لي، وأدركت أنني - بحكم القانون - لا صفة لي في العالم، وقد اجتمع بشر وطالعوا أوراقًا، فقرروا أن يحكموا عليَّ بإعدام مدة تنفيذه مستمرة، على مدار ما تبقى لي من عمر.

قطع الصمتَ الذي ران وخيم على المكان تحركُ الشاب ذي النجمتين، ومن ورائه رجاله من الشرطة وهم يخطون نحوي. فردت سارة ذراعيها محاولة منعهم من الوصول إليَّ، فأزاحوها بنوعٍ من الرفق في تقدمهم نحوي. عند وسط المسافة القصيرة التي بيني وبينهم، كان توقفهم المفاجئ. لف الصمت المكان، وهم ينظرون إليَّ.. وقد استبدت بهم الحيرة والارتباك.

انكسـرت نظرة سـارة وهي تجـري تحتضنني، محاولة أن تسـتر البلل الذي أحدثه البول الذي أدررته، ليكسو بنطالي.

- أرجوكم، دعوني أغيِّر له وأجهزه..

انكسار نظرتها انتقل إلى صوتها:

- سينزل معكم.. ولكن دعوه ينزل بكرامة..

نظـر المحامي من جديد إلى سـامي الذي اسـتكثر أن يومـئ، هذه المرة واكتفـى بإيجـاب مـن جفونه، فقـال المحامـي القصير وقد أدرك أن سـيادة الموقف قد دانت له:

- خمس دقائق ويكون جاهزًا.

فـي حنوٍّ، لفت سـارة ذراعهـا حول خصـري، وخطت بي إلـى الداخل حيث غرفتنا. أمسـكت سارة دموعًا ألحت مسـتأذنة في النزول من مقلتيها، مكتفية بانهمار دموعي أنا الذي لم يكن بوسعي إيقافها.

أخرجـت من الدولاب بدلتـي المفضلة، واختارت حذاءً كانت قد اشـترته لـي قبـل يوم أو يومين. أمسـكت بفوطة مبللة ومسـحت ما أصبـح بي من بلل، ثـم بدأت تلبسـني البدلة، ومن قبلهـا الجورب، وأنا مستسـلم ليديها. لحظتها، أَدركت ما هو شعور الميت وقت تغسيله وتكفينه بالتأكيد. ميت حي أنا، ذاهب إلى قبر لم يختره بنفسه، بل انتقاه له من قرروا أن وقت دفنه قد حان.

حيـن انتهت، شـدت يدي برفـق، فاسـتقمت واقفًا أمامهـا.. نظرت إلى عينيَّ مباشرة، وقالت:

- لن أتركك..

- لا أريد الذهاب..

- ستعود.. أعدك ستعود..

قبل أن نخرج من الحجرة، فتحت صندوق حُليها، فبدأت موسيقاه الرقيقة في العزف. مدت يدها، وأخرجت العلبة الصغيرة منه، وقدمتها إليَّ.. فقلت من بين دموعي:

- لا لن آخذه.. دعيه معك حتى لا تنسيني..

- لا يمكن أن أنساك؛ أنت جزء مني.. أريده معك وأريدك أن تعطيه لي من جديد وقتما تعود..

لم تترك لي سارة مجالًا للمناقشة؛ إذ وضعت العلبة في جيبي، ومن بعدها احتضنتني لأذوب مرة أخرى - ولعلها أخيرة - في حنانها. علا صوت من خارج الغرفة ينادي:

- يا أستاذة..!!

برفق، أبعدتني عنها قبل أن تشب لتقبل جبيني، وتعود لتلف يدها حول خصري؛ لنتوجه ببطء جنائزي إلى حيث كانوا ينتظروننا.

ما إن ظهرنا لهم، حتى تقدم نحوي الضابط الشاب ليتأبطني فسارعت بلفظ يده. أردت أن أعلنه بأن ما سمعه عن فقداني أهليتي غير حقيقي، وأن بي قدرة على تسيير نفسي. خطوتان أو ثلاث على الأكثر، ثم توقفت وأغمضت عينيَّ أستعيد كلمات الطبيب، يوم تشخيصي، ترن في أذنيَّ:

- ثم تبدأ الذاكرة في الضعف والانسحاب يومًا بعد يوم إلى أن تفقدها تمامًا.

منذ ذلك اليوم، أصبح شاغلي الأوحد هو التأكد من أن آخر ما ستسجله ذاكرتي التي قررت أن تنسحب وتتوارى، سيكون حلو المذاق. وقت أن تعلن ذاكرتي تمام انسحابها، سأستحيل جسدًا أتصوره هامدًا مستسلمًا، لا جدوى له سوى الاستمرار في التنطع على هواء أرض ملأها وملأته

صخبًا وحياة لفترة طويلة. أنفاس أثبت بها أني حي، وإن كان الأجدر أن أتركها لمن بهم قدرة على تسجيل لحظاتها، والشعور بدبيبها بداخلهم وحولهم، وإيداع لحظات مرورهم فيها في خزائن أذهانهم.

ترن كلمات الطبيب، فيما تبقى من ذاكرتي الآفلة، فأجتهد معها في اختيار ما أريده أن يكون آخر ما يغادرني من ذكريات.. أعرف أي مشهد أريد التمسك به، فهو حلم رائع عشته حتى لحظات ما قبل أن يأتوا لينتزعوني من أحضانها.هجومهم أحال حُلمي كابوسًا مريعًا فلم يتبق لي سوى التأكد من أن جزءه الرائع - لا المريع - هو الذي أحفظ أثره، قبل أن تعلن ذاكرتي الانسحاب النهائي.

بإصرار هذه المرة، تمتد يد الضابط لتقبض على ذراعي ويبدأ في اقتيادي إلى الخارج. ما إن خطا بي خارج الشقة، حتى افتقدت وجودها بجانبي، فأدرت عنقي أبحث عنها لأجد تشخيص الانكسار مستعمرًا وجهها. لم تعد دموعها بحاجة لاستئذان في الخروج، فقد بللت وجنتيها الرقيقتين عن آخرهما. في هذه اللحظة، رغبت في أن أكون قويًّا من أجلها؛ فحاولت أن أستعيد لحظات سعادتي معها متسولًا الابتسامة. أدركت، والمسافة تزيد بيننا أن دنيانا تعطينا لتجد ما تأخذه منا.. خانتني قوة أردت أن أمدها بها، فترقرقت دموع شيخ طحنته آلة زمن، لتجعله كرضيع ينتزعونه من أحضان أمه. لم أكن مكلومًا لفراق حبيبة إلا ليقيني بأنه لا حنان بعدها. استسلمت للجمع الذي أحاطني فنزلت معهم، وأنا أعرف أني للتو ودّعت ما تبقى لي من ضئيل سعادة في هذه الحياة. استمرت الذاكرة تستمسك والنفس تستزيد من آخر همساتها:

- أحبك.

2

أستمر في التقلب من ناحية إلى أخرى في السرير، باحثًا عن وضع أستدعي معه نومًا جافى عيوني دون جدوى. اضطجعت على جانبي مواجها النافذة التي احتل ركنها قمر خجلٌ من عدم اكتماله. يتراقص على ضوئه، على استحياء، غصن شجرة محمل ببقايا أوراق استمسكت به، هاربة من جور الشتاء عليها. تغار يداي من تراقص الغصن، فتبدأ رعشتها المعتادة التي لا أستطيع لها إيقافًا. الظلمة، التي احتوت القمر والغصن بأوراقه الواهنة، تتسرب إليَّ فيغمرني وجل لا أستطيع تفسيره.. أغلق جفوني محاولًا من جديد، إرسال سهدي من حيث أتى فيزداد ما بي من إزعاج ظلمة غير مرحب بها.. أفتح عينيَّ من جديد، فأشعر بانفراجة مع إحساسي بأن لا حاجة بي للاستمرار في سريري، إذ أكدت لي مخيلتي أن النوم لم يغادرني، إلا لأن ميعاد الاستيقاظ قد صرفه.

تتباطأ - وأظن عن عمد - إشارات عقلي لقدميَّ؛ كي أبدأ في القيام وكأني لا تحكم لي بجسدي. ببطء شديد تحط أرجلي على الأرض، وبجهد جهيد أجد نفسي أخيرًا لاهثًا أستجمع أنفاسي بعد أن استطعت الوقوف. أستجيب لأولى خواطري، فأمد يدي إلى درجي الخاوي إلا من العلبة الصغيرة الأنيقة ذات اللون الذي أعشقه، والذي لا أستطيع أن أجد

له اسمًا في دهاليز ذاكرتي.. أسحب العلبة لأضعها في جيبي، فهي سبب أصيل في مشواري الذي عزمته.

أبدأ في التحرك صوب الباب فيغمرني من جديد شعور بأن تناوب خطواتي أكثر بطئًا من رغباتي وقدراتي.. أقف في منتصف الغرفة، وبي حيرة ما لبثت أن ذهبت، حين مددت يدي لأضع في جيبي الآخر دفترًا أسود صغيرًا، وإن كنت لم أعلم السبب الذي جعلني أرى في حمله ضرورة.

توقفت متلفتًا لحظة، قبل أن تدفعني الظلمة المطلة عليَّ من النافذة إلى أن أدير مقبض الباب. مع فتح الباب، يأتيني صريره الخافت، وهو يكشف رويدًا رويدًا عن الطرقة التي وراءه. لم أكد أنهي ثالث أو رابع خطواتي في الطرقة؛ حتى سمعت صريرًا جديدًا لباب آخر، ينفتح من خلفي.. تجاهلت الصوت، واستمررت في تقدمي قبل أن يلحق بي صوتها:

- إلى أين يا حبيبي؟ لم يأت الصباح بعد..

ألتفت إلى مصدر الصوت مرتبكًا شاخصًا ناحيتها، وأنا أشعر بالالتباس مرتسمًا على وجهي، وهي تتقدم نحوي:

- تعال نرجع سريرك..

استسلمت ليدها التي وضعتها على كتفي بحنو، تقودني من جديد إلى مخدعي.. أصبح وجهها نبضات في ذهني، تتأرجح بين اطمئناني لها ومحاولتي ربط اسم بتقاطيعها المألوفة.. أدخلتني سريري وهي تمسح وجهي برقة، قبل أن تشد الغطاء حتى رقبتي إلا قليلًا.

- سأحضر لك كوب لبن دافئ..

حين بدأت أرشف الحليب الذي عادت بـه، ازداد ضغط أصابعي على العلبة التي بجيبي. استمددت منها طمأنينة، لم تقدر عليها لا كلمات ولا حنو من استمرّت في الربت عليّ. سرعان ما أدركت أنها لن تغادرني إلا نائمًا، فأغلقت عيني، وجعلت أنفاسي منتظمة لأبدو كمن دخل في سُبات عميق، يجعلها تتركني لحالي. سرعان ما تحقق مآربي، وأنا أسمع خطواتها خفيفة صوب الباب، الذي توقفت عنده برهة، قبل أن يعود من جديد صرير فتحه ثم رده، ومن بعدهما علا صوت تمام إغلاقه.

عدت مرة أخرى أتقلب من ناحية إلى أخرى، والعلبة الصغيرة تؤنس راحة يدي، قبل أن أبدأ محاولة خروج ثانية. حين وصلت منتصف الطرقة، سمعت صوتها وإن كان عن بعد هذه المرة.. تمكنت أن أُجْزم بأن كلامها لم يكن موجهًا لي.. كلماتها أتتني مغمغمة، لم أستبن معها كل ما تقول:

- ثالث مرة يقوم الليلة..

ثم تتتابع العبارات، يفصل بينها في كل مرة سكون:

- مع غروب الشمس يبدأ قلقه..

- حبيبي.. كما لو كان طفلًا في جسد عجوز..

- الممرضة الألمانية إجازة اليوم..

- هانِتْ! غدًا الجلسة الأخيرة..

- نعم، طارق معي الليلة... كلمني منذ قليل وقال إنه على وصول..

لم أدرك لِمَ توقفت مع سماعي آخر كلماتها، ولكنني وجدتني أعلى سلم وبي كثير من اللوعة والأسى. أنظر إلى هذه الدرجات، محاولًا استدعاء

كيفية التعامل معها، فتتلبسني مشاعر عدم المقدرة.. أجلس على الدرجة العليا، وأفرد ساقيّ فوق الدرجتين التاليتين ومازالت الحيرة رفيقتي.. أسند وجهي بين كفيّ وأدقق النظر إلى الدرج الملتوي، الذي يفصل بيني وبين بداية رحلتي.

أظنني شردت بحيرتي، فلم ألحظه صاعدًا الدرجات قبل أن يتوقف أمامي، مسددًا نحوي نظرة جعلتني ملتاعًا متشبثًا بدرابزين السلم، الذي التجأت إليه بيديّ محتميًا، محاولًا أن أباعد بيني وبين الواقف أمامي الذي أثار ذعري:

- ماذا تفعل هنا؟

نظرت إليه في صمت دون رد..

- أنا واثق أنك أكثر وعيًا بكل ما يدور حولك، عما تحاول أن توحي إلينا به. لا أصدق أنك لا تعرفني؛ فقط تختار أن تتجاهلني كما اعتدت..

أختنق ضيقًا بقربه الذي ازداد مني، حينما مال بجذعه، وأخفض صوته قائلًا:

- لا أستطيع هضم موضوع ذاكرتك هذا.. أحسّك تبالغ فيه؛ تريد عطفًا؟ على غير عادتك!

يستمر صمتي مع تسارع ضربات قلبي إثر وجلٍ اجتاحني.. لم أستطع سوى مزيد من الصمت إزاء ما يوجهه لي هذا الغريب من حديث:

- اسمع؛ سواء أكنت واعيًا لذلك أم غير واعٍ، دعني أقل لك شيئًا واحدًا: لقد انتصرت عليك في النهاية. أتعرف ألذ شيء في انتقامي منك، هو أنني

حتى لم أحلم بما تحقق: كله بغير مجهود! بدعوة منها ومنك؛ من «نور» شخصيًّا وبمساعدتك. ومن سخرية القدر أن ينتهي بي الحال في سريرها، وأنت جالس هنا سواء أكنت تدري أم لا تدري بذلك.

تحرك عبري، فازددت التصاقا بالدرابزين وقد امتلأت باضطراب سرى بكل جسدي.. تخطاني، ولكنه ما لبث أن توقف ملتفتًا ناحيتي من جديد:

- من يصدق أني الآن مَلِك البيت الذي كنت أنت سيده، ولفظتني منه أيام عنفوانك..

خطا خطوة أخرى قبل أن يعود أدراجه، فأشعر بأنفاسه على وجهي، وهو يهمس في أذنيّ:

- أجمل ما في الموضوع أن مالك هو الذي اشترى لي انتقامي منك!

لم أفهم من حديثه شيئًا وارتحت فقط حين ابتعد بخطواته عني وتلاشى وقعها مع ردة الباب الذي في نهاية الطرقة. ثم ما لبثت أن سمعت الباب يفتح من جديد، ويترك هذه المرة دون إغلاق فيما خلته تعمدًا.

الأثر الوحيد لكلماته التي وترتني، كان في قدرتي أن أعود واقفًا، أبدأ في وضع قدم ومن خلفها الأخرى على أول درجة سلم، ومن بعد ذلك توالت الخطوات لتتوارى الدرجات من خلفي تباعًا. حين وصلت نهاية الدرج، التفت ناظرًا إلى أعلى وبي شيء من الزهو على ما أنجزته، وإن استمرت كيفية نزولي تحيرني.

تحسست طريقي في الصالة ذات الإضاءة الخافتة حتى ألقيت بنفسي على مقعد منزوٍ في ركنها الأقصى. طالت جلستي، وأنا لا أعلم لانتظاري

داعيًا، ولكنه بدا الاختيار الأمثل بعد رحلة، لِمَ أدر لم بدأتها أصلًا. أخرجت علبتي الأثيرة من جيبي، وأخذت أنظر إليها بإعجاب صدَّر إلى وجهي ابتسامة ملأتني بسكينة، كانت قد غابت عني منذ تركت حجرتي. لونها مازال يثير إعجابي وسرعان ما قفز اسمه إلى مقدمة أفكاري: تركواز.

وأنا جالس في الصالة، تناوبت مقلتاي النظر ما بين العلبة وباب المدخل.. يدعوني الباب إلى فتحه والخروج، فيؤجل قلقي ذلك. خفت أن يسمعني من بالدور العلوي، فيعيدوني من جديد إلى حجرتي. يهديني تفكيري إلى أنه من الأفضل الاستمرار في جلستي تلك لمزيد من الوقت.

المكان حولي به ألفة لا أستطيع تفسيرها، تجوب في ذهني أطياف شخوص وجوهها بها إبهام، أظنني التقيتها من قبل في هذا المكان. تحاول إطارات الصور المنتشرة من حولي معاونتي في تعريف وجوه من يجولون في رأسي. أراني أتوسط أغلب الصور، وإن راوغني التعرف على كل المبتسمين من حولي فيها. تلح عليَّ ذكرى لصورة فأجتهد لأستعيدها، ولكنها تظل مشوشة مطموسة معالمها.

تستجديني من جديد الوجوه المطلة عليّ من داخل الإطارات أن أذكر أسماءها، فأنجح بعد جهد مع اثنين أو ثلاث منهم مازالت وجوههم قابعة فيما تبقى من ذاكرتي.. أتعرف نور وماجدة، ثم من بعدهما، وبصعوبة مضنية، سامي. أظن أن الذاكرة قد وقعت على قرار نفي وشيك له؛ لينضم إلى من سبقوه في سكنى وادي نسياني الممتد. أغتر بقدرتي على تسميتهم، فأشرع في استرجاع لحظات ابتسامنا في إحدى الصور أو التي تجاورها، فيردني عجزي ألا أطمع في قدرات لم يعد لي قدرة عليها.

أظـن أنني غفوت في مقعدي، ولكني أفقت علـى أصوات لـم أتيقن، إن كانت آتية من خلف الباب الذي لـم يحكم غلقه، أم أنها كانت جزءًا من حلم مازلـت واقعًـا تحت تأثيره، الإضـاءة الخافتة جعلت حواسـي متحفزة على غيـر عادة، فملأت أذني أصوات ضحكة خجلة، تتبعها ضحكة أكثر خجلًا، ومن بعدها تأوهات تفصل بينها كلمات متقطعة..

- أوحشتني..

- أحبكَ..

- وأنا أحبكِ... تعالِ هنا..

أسـمع مزيـدًا مـن الضحـكات الموحيـة، يتلوهـا صمـت ذو أصوات. لا أدري إن كان خيـالًا أم أنني سـمعت أصوات أجسـاد فيمـا أظن تتلاحم. وحينئـذٍ أدركـت أن فرصتـي قـد أتت. فقمت مـن مقعدي ووجـدت قدمي تسـرعان الخطـى؛ لتأخذانـي صوب البـاب الذي ظـل ينادينـي، منذ بدأت جلسـتي. تلعثمت فـي فتحه، وأجهـدت ذاكرتي في محاولة اسـتعادة كيفية ذلـك. مرة تلو الأخـرى، لا تنجح محاولاتـي حتى كاد اليـأس أن يصيبني. توقفـت للحظات عن المحاولة، وأنا أكرس كل فكري في اسـتعادة ما يبدو للناس بديهيًا. طالت وقفتي أمام الباب قبل أن يؤرقني هاجس:

- لِم أقف هنا؟!

يشدني ظل يتراقص دون خجل في وسط الشباك الذي على يميني. أتجه إليه مستطلعًا، فأجد سعف نخلة هزه الهواء، فرمى ظله على الأرض متناثرًا، وكأنه يثبت وجوده متمايلًا من وسـط بقايا ليل. بدأ الاصطدام بأشعة شمس

تشـقه على اسـتحياء. النخلة نفسـها في تلك الأمسـية كانـت تتلاعب على جذعها انعكاسـات الإضاءة، التـي خططت لها ماجدة ونور لتشـع حديقتنا بهجة..

- من فضلكم الحفلة لأصحابي، فلا تحرجوهم بوجودكما..

ابتسـمنا أنا وماجدة.. وابنتنا تناشدنا أن نختفي يوم حفلتها.. حققت لها طلبهـا واحتفظت لنفسـي بموقع للمراقبة من ركن الشـباك الذي أقف أمامه الآن. ظلـت ماجدة تسـخر مـن وقفتي، وإن لـم تمتنع عن طلـب أن أنقل لها المجريات أولًا فأول.

يومها تضاعفت زينة الحديقة بصديقات نور بالجامعة الأمريكية، اللائي كـن على وشـك التخرج. تحسـدهن الفراشـات على جمالهـن وأعوادهن الرشـيقة، وثيابهـن التـي اعتنيـن باختيارهـا. خـرّاط البنات أبـدع يومها في نحتهـن، وتأكد من ترك لمسـة بهاء متفردة لكل منهن؛ لتكـون بصمتها التي تُعـرفُ بهـا. من حولهـن تجمعت زمرة مـن زملائهـم الشـباب، تعجبت من اختياراتهم لملبسهم ومظهرهم، وهـم يعرفون أنهـم سيلاقون في ليلتهـم هذه تلك الجميلات.

حفل كهذا على أيامي، كنا سنرتدي له الحلل الداكنة، ومن تحتها قمصان ناصعة البياض منشيّة الأساور، تزينها أربطة عنق كحيلة. ولكن يبدو أن ذلك كان زمنًـا واراه التراب، فالشـباب من أصدقاء نور لبسـن قمصانًا مزركشـة، لا يباريها في عدم الاتسـاق، سـوى شـعرهم المسترسـل طولًا والمخاصم لكل محاولات تصفيفه.

استمرت رقصات الشباب في تلك الليلة على أنغام الموسيقى الصادحة بغلو. جماعيـة صخبهم أخمدت قلقًا راودني منذ بداية الحفل. مع انتصاف الليل زحفت تلك المخاوف إلى رأسـي من جديد، مع بدء انبعاث موسيقى هادئة تنضح رومانسية.بدأ كل شاب في صحبة فتاة في رقصة أكثر خصوصية تظلّها أضواء اختاروا أن يخفتوها وهم يتوسطون حلبة الرقص. حين ذاك لم يعد يحتل مرمى نظري سـوى «نور». وهي تتأبط ذلك الشـاب الذي لامس شـعره الطويـل أكتافه. امتزجت في عروقي دماء غيـرة، مع عجز عن تحقيق رغبتي في أن أخرج إليهم لأفصل بينه وبينها. خرجت من الركن الذي كنت أحتله ليروا أنني أراقبهم؛ فردت عليّ نور بنظرة غاضبة، تحثني على الاختفاء من جديد. استفزتني ضحكة ماجدة، وهي تبعدني عن النافذة:

- أنسيت حين كنت تراقصني أيام الشباب؟

- لم أكن طائشًا مثل هؤلاء..

ضحكت مجلجلة من جديد:

- كنت طائشًا في نظر والديّ..

انتهى الحفل لتتلوه أيام اختارت من ازدياد قلقي واشتداد غيرتي عناوين لها. ماجدة ونور أصبحتا تتهامسان دون توقـف، ولا يمنعهما عن ذلك سوى ظهـوري. غـدت نور إما في حالـة والهة بعيون زائغة أو منشـغلة بمكالمات هامسـة لا أتبيـن تفاصيلهـا كلما مـررت بغرفتهـا، التي تحصنـت بداخلها. تربص بي شعور مستمر بعدم الارتياح، يزداد مع مراوغات ماجدة وامتناعها عن الرد على تساؤلاتي المتوالية. حتى جاء يوم، كان يفترض عليّ أن أتمناه، وأنا الذي أخشاه ولا أرغب في قدومه:

- طارق وأهله يريدون أن يزورونا..

بعدم اكتراث تمثيلي، رددت على ماجدة:

- طارق من؟

تسارعت عقارب الزمن تجري أمامي، وأنا أحاول تهدئتها دون قدرة وقد اجتمعت إرادة أم وابنتها على التعجيل بها. دق ناقوس البداية بزيارة اصطحب فيها أهله، وقبل أن يغادروا كان لهم طلب متوقع:

- نقرأ الفاتحة.. ربنا يتمم لهم على خير.

قرأتها مترددًا وأنا أدفع جانبًا عدم ارتياحي الأوّلي نحوه ونحو أهله.. أضنيت نفسي كثيرًا محاولًا قبوله دون جدوى. أصرت ماجدة أن مشاعري طبيعية تصيب كل أب، حين يأتي يوم تغادر ابنته بيته وكنفه لتبدأ حياة منفصلة عنه. لم أجادلها لا عن اقتناع بما قالت، ولكن عن عجز عن تبرير رفضٍ لما بدا محتومًا. لم يمنعني إذعاني لرغباتهن أن أصدمهن كل آنٍ وآخر بما نعتوه «عدم كياسة»:

- نحب نتناقش في مهر نور الجميلة..

لم أستسغ ابتسامة الأب، وهو يفاتحني في الموضوع، فجاء ردِّي صارمًا:

- نور ليست بضاعة نحدد لها ثمنًا..

هكذا أعلنتهم بموقف أقسمت عليه أول يوم حملتها في حضني، وأسمعتني باكورة صرخاتها في هذه الدنيا.

جرى الزمن بي من وقت، كانت رضيعة تبتسم لي وحدي، إلى يوم وقفنا متجاورين تحيط بنا حاملات الشموع. في ثوبها الأبيض وطرحتها الشفافة المنسدلة على وجهها الملائكي. أتذكر عروسًا كل تفاصيلها جميلة، تتأبط ذراعي ونحن وقوف، ننتظر إشارة تحرك لم أرد لها أن تجيء. الدفوف تزأر، وأنظار الحضور جميعًا مسلطة على نور، التي التصقت بي فأحسست بقلقها. مددت يدي أربت على يدها مطمئنًا إياها، وأنا أداري ما يجتاحني أنا من قلق، ثم جاءت الإشارة فبدأنا معًا خطوات قليلة لمشوار تواطأ عليَّ فيه ثقله وفرضيته؛ ليكون الأقصر والأطول في حياتي. كان واقفًا أمامنا ينتظر وصولنا. بدا وسيمًا بشعره الداكن، الذي أحسن تصفيفه وجسده الذي أظهرت رياضيته البدلة الداكنة التي ارتداها. خمس خطوات أو أقل وتقابلنا فمال عليّ يعانقني؛ تهتهت وأنا ألقي في أذنيه ما جهزت نفسي لأن أقوله له في تلك اللحظة:

- تأخذ أغلى ما أملك... حافظ عليها.

ازدادت الدفوف والطبول صخبًا. وأنا يتم استبدالي، لتكف نور عن تأبطي، وتستعيض عن ذلك باحتضان ذراعه، بعد أن أزاح طرحتها وقبل جبينها. تنزوي عني الأضواء التي تفضل ملاحقة زفة العروسين، فأجد في ذلك نعمة أن أحدًا لن يلحظ دمعة خانتني، وجرت على وجهي. كعادتها.. تتنبه لي ماجدة، فتقودني حانية خلف ابنتنا المتلألأة جمالًا وبهجة في حفل زفافها.

- أوحشتني.

لم يكن الصوت هذه المرة صادرًا من خلف باب الغرفة الموارب..

نظرت بسعادة للواقفة خلفي:

- أخيرًا عدتِ.. طال غيابكِ.

ألمس الفرحة في صوتها:

- نعم يا جدي... أنا هنا..

- اشتقت إليك يا نانسي..

يسعدني الشغف في ردها:

- وأنت أوحشتني فوق أي وصف..

احتل ذهني وجهها الأبيض وشعرها الأشقر، الذي لملمته خلف أذنيها لتشرق تفاصيل جمالها. ابتسمت وأنا أرى أن وجهها لم يفقد طفوليته التي أعشقها، وهي الآن امرأة على مشارف الثلاثينيات.

ما إن جلست على المقعد القريب، حتى سمعتها تهمس:

- احكِ لي.

3

اتكأت نانسي على مسند المقعد بجانبي، وشعرت بذراعها اليسرى يلتف حول كتفي، بينما يدها اليمنى تداعب يسراي. انتقلت لمساتها الحنون إلى عروقي سكينة وهدوءًا، طالما اشتقت إليهما طيلة غيابها عني. مالبثت أن توقفت عند الساعة الذهبية التي تعانق رسغي، وأخذت تتفحصها بيدها وتنظر إليها بتمعن.

- أقول لك حكايتها؟

هزَّت رأسها إيجابًا وهي تبتسم..

قلت مبتسمًا:

- ولكن ما سأقوله سر.. لا تستطيعين أن تحكيه لأحد..

أومأت من جديد موافقة.

- بالذات جدتك..

سمعت دهشة في صوتها لم أفهم لها سببًا:

- جدتي؟!

- نعم، جدتك ماجدة..

أعادت كلماتي متسائلة بقدر كبير من الذهول:

- جدتي ماجدة؟!

- نعم، ماجدة... لن تقولي لها شيئًا مما سأحكيه. لا أريد أن نجرحها..

في استكانة استجابت:

- لن أقول لأحد شيئًا..

ثم أردفت مترددة:

- وبالذات جدتي ماجدة..

ضحكت قائلًا:

- على فكرة هذه الساعة لم تفارق يدي من وقت كنت شابًّا، ولم تحاول ماجدة يومًا أن تسألني عنها ولا أن تطلب مني أن أغيِّرها. من المفيد أنها لم تطلب ذلك، وأنها لم تعطني ساعة أخرى كهدية؛ لأنها لم تكن لتفارق معصمي.

غصت في مقعدي وخيال سارة، في أول مرة تقع عيناي عليها يملأ الذاكرة. فتاة دون العشرين مذعورة في ملابس نومها نصف الشفافة، واقفة خلف والدتها، هي وأختها الأصغر. كانتا تتشبثان بأمهما، وقد تجمدت صدمة الثلاث على وجوههن من إثر الموقف المهيب.

سبق ذلك أن كنا قد اصطففنا على بسطة السلم المكسو بالرخام الإيطالي لعمارة جاردن سيتي الأنيقة ذات الأسقف المرتفعة. عشرة، أو

اثنا عشر رجلًا، بين الطول والقصر، يرتدون البدلات الداكنة وربطات العنق الأشد دكنة. أعيننا تغطيها نظاراتنا السوداء، رغم أن الليل لم يقبل بعد رغبة الفجر في تبديده. مع شدة طرقنا على باب شقة سارة، تلصص بقية سكان العمارة من شراعات أبوابهم ذات الزجاج نصف الشفاف، يستطلعون أسباب الجلبة. ولكنهم سرعان ما آثروا السلامة، فتغاضوا عن نخوة وشهامة الجيرة، وأحكموا إغلاق أبوابهم، خوفًا أن نصعد إليهم بعد أن سمعوا زئير قائدنا المجلجل على إيقاع دقاته المتوالية على الباب:

- افتحوا... لجنة تصفية الإقطاع!

كانت أولى مشاركاتي مع اللجنة منذ انتدابي. كنت واقفًا وسط الرجال يخالطني مزيج من الفرحة المصحوبة بالاعتداد بما نحن بصدد تنفيذ ما استحقه أعداء الثورة ومحاربيها. في أذنيّ ترن كلمات ناصر الزعيم التي طالما دغدغت قناعات الاشتراكية التي كنت أدين بها:

«إن الرجعية تتصادم مع مصالح جموع الشعب بحكم احتكارها لثروته».

وها نحن بصدد غزو أحد معاقل تلك الرجعية التي تعيق المسيرة. حين فتحت أم سارة الباب، لم يتسن لها أن تبقيه مواربًا كما أرادت إلا ثوان معدودات، تلاها دونما استئذان اندفاعنا إلى داخل الشقة وانتشارنا في جوانبها. ظلت هي وابنتاها يتراجعن حتى توسطن أريكة في وسط الصالة وهن ملتصقات ببعضهن، دون أن ينبسن حرفًا ولا صوتًا اللهم إلا نحنحة بكاء المشدوهات. من خلفهن طلت صورة رجل، تطابقت قسمات وجه

الابنة الصغرى مع ملامحه، وقد احتلت ركنها الأعلى شـريطة سـوداء أُحُكم لصقها.

لم أستطع إلا أن أتسمَّر مكاني أمامهن في وسط الصالة، مع علو ضجيج التفتيـش الذي يجريه زملائـي في أنحاء المنزل. كنت أتفـادى النظر إليهن، وإن خانتنـي تلـك النظرة المختَلسـة كل آن إلى وجه سـارة، الابنة الكبرى. وجه فارقته الدماء، فاسـتحال إلى بياض الشمع النقي بعد أن غسلته دموعها المستمرة. وامتنعت عنه أي خلجات معبرة إلا عن رعب مبين. اللون الوحيد الذي غلب طلعتها، كان هذا الاحمرار الاسـتثنائي لشـعرها، ونمش خجول بدا انعكاسًـا لشعرها يزين وجنتيها. شـدتني عيناها الواسعتان باخضرارهما الخفيف ليسـتكملا دقة جمال كسـا وجهها لم يسـتطع الموقف الذي كانت تمر به أن يطفئه.

اعترتني حمرة خجل، حين أمرني قائد المجموعة:

– ابدأ في جرد التحف التي بالصالون بدلًا من وقفتك تلك..

بعـد أن طالت أيادينا كل ركن في البيت، بدأ انسـحابنا محملين بغنائمنا من التحف والمجوهرات التي حرصنا ألا نترك لهن منها إلا ما لم نطله. كنا علـى يقين أن مـا بأيدينا في طريقه إلى جموع الشـعب، التـي طالما رزحت تحـت ظلـم إقطـاع طبقتهـن. أظنني كنـت آخـر المغادريـن، وقـد تابعتني نظراتهن شـاكية عاتبة. كُنَّ قد اسـتمررن جالسـات في جمود على الأريكة، التـي التصقـن بها من لحظـة اقتحامنا. التوسـل الذي كان في عين أم سـارة لحظة خروجي، دفعني أن أسترهن بإغلاق باب الشقة. شعرت بارتياح أنني جنبتهن أن يشهد أي عابر الانكسار الذي تركناهن عليه.

مـر يومـان أو ثلاثة قبل أن أقف مـن جديد أمام باب الشـقة.. هذه المرة أتيتهـم وحـدي دون الزمرة التي رافقتني في زيارتي الأولى. على اسـتحياء، وإن كان دون تـردد، ضغطـت علـى جرس الباب مرة واحـدة وانتظرت قبل أن أفعلهـا مـرة أخرى، فلم أسـلم من صليلـه المزعج، الذي اسـتمر يدوّي فـي أذني. حين فتحـت الأم الباب هذه المرة، لم تحـاول أن تبقيه مواربًا بل سـرعان ما أفسـحت، تاركة لي حرية الدخول، وهي تنظر مستطلعة أي عدد من الرجال يصحبونني هذه المرة.

- أتيت أطمئن عليكم..

قلتها لهن، بعد أن جلسـت في الصالون وقـد ارتصصن ثلاثتهن أمامي، فعلت وجوههن اندهاشة شهادة القاتل للقتيل.

غرامي بجرأتها بدأ يومها، حين سـمعت صوت سـارة لأول مرة تباغتني قائلة:

- تُرَى هل اطمئنانك هذا جزء من وظيفتك؟!

يومها اسـتطعت تفادي الرد على بديهية سـؤالها الذي امتلأ مرارةً، جراء ما مـررت به قبـل أيام أثناء غارتنـا الأولى عليهن. أذكر أني لم أطل جلسـتي وأنني اسـتأذنت والدتهـا قبـل ذهابي في تكـرار زيارتهـن؛ للتأكـد من عدم حاجتهن لأي مسـاعدة أسـتطيعها لهن. أومأت الأم باستسلام لرغبتي، وهي التي تبغض سلطة أمثلها، وتلومها على فراق زوجها لدنيانا. سلطة لم يتحمل الرجل تأميمها لكل ما يملك، فلم يعش ليشهد إغارتها من جديد على عائلته؛ لتصادر القليل مما تبقى لهن من ممتلكات شخصية بأمر الشعب!

تعاقبت زياراتي وقلّت فواصلها الزمنية، وأنا لا أمانع أن يكون في قبولهن لطرقي بابهن شيء من الخوف من منصبي. ما سيطر عليَّ وقتها كان حاجتي المتزايدة لرؤياها والاستمتاع بوجودي بالقرب منها. في ذهني، لم تعد سارة حلمًا غير قابل للتحقيق لأمثالي من أبناء الطبقة المتوسطة. تلك الطبقة التي لم يكن لها يومًا حق الطمع في بنات الأرستقراطية، التي اجتهدت الثورة من أجل القضاء عليها. أقنعت نفسي بأنني قادر أن أرشدهم إلى واقع جديد يعيشه الوطن. أيامها كنت متحمسًا لحراك المجتمع نحو مساواة، ننعم من خلالها بذوبان طبقية فرقت بيننا آمادًا طويلة.

يومان متتاليان دُقَّت فيهما معاول افتراقنا الذي تبعهما. كانت أول مرة تتركنا أمها وأختها وحدنا في الصالون، بعد أن أحضرا لي فنجان قهوتي الأثير..

- ممكن أطلب منك طلبًا..

سارعت سعيدًا بالاستجابة:

- تأمرين يا آنسة سارة..

لم تدرك أن كلماتها التي تلت ترحيبي بطلبها أقرب إلى طلقات تصيب قلبًا حالمًا باحتوائها:

- لم يعد لنا مكان في مصر. أعلم إيمانك بالثورة ومبادئها، ولكن المساواة التي تنشدونها داست في طريقها أمثالنا وألقت بهم على جوانب طريقها المختار.

لاحظت قلقي، فهدأت من وتيرة تهجمها واستدعت في صوتها أنوثة مخلوطة بضعف:

- نعشق تراب بلد أهلها يكرهوننا، ولا أستطيع أن أقول إننا على حبنا الذي كان لهم..

صمتنا معًا قبل أن تباغتني:

- نريدك أن تساعدنا في الخروج من مصر. معنا تأشيرات لأوروبا، ولكنها حبر على ورق، دون تأشيرة خروج من موظف في مجمع التحرير كما قررت ثورتكم..

يومها خرجت من جاردن سيتي إلى كورنيش النيل، أتحرى حلًّا منطقيًّا لمعضلة طلبها.

في اليوم التالي، استدعاني مديري:

- وصلتني تقارير غير مرضية عنك.

لم أفهم مرماه فأكمل:

- أصدقاء يريدون مصلحتك أبلغوني عن تكرار زياراتك لجاردن سيتي.

صدمتني وشاية من وثقت فيهم وشاركتهم مشاعر غزتني. هدأت حين تذكرت أننا جميعًا مكلفين بحماية الثورة من أي مستصغر حتى ولو على حساب الإبلاغ عن أقرب الأقربين.

- انس هذا الموضوع نهائيًا. أنسيت أنهم أعداء معلنون للثورة؟ هل تستأهل البنت ضياع مستقبلك؟ أظن كلامي واضح! تفضل إلى مكتبك!

***

- سامعه يا نانسي؟

أحسست بها ترهف السمع ليتلو ذلك ابتسامة، تباري تلك التي ارتسمت على وجهي..

«أمل حياتي يا حب غالي ما ينتهيش

يا أحلى غنوه سمعها قلبي وما تتنسيش

خد عمري كله بس النهارده خليني أعيش

خليني جنبك في حضن قلبك

خليني

وسيبني أحلم

أحلم

يا ريت زماني ما يصحينيش».

- أمل حياتي يا نانسي... الست..

- عارفه..

- طيب عارفه إني سمعتها تغني هذه الأغنية على المسرح.. مسرح قصر النيل..

استمررنا في سماع صوت أم كلثوم يشدو، قبل أن أقرر الاستمرار في مداعبة فضول نانسي.

- طيب عارفة مَنْ جلست بجانبي في الحفلة نسمع «أمل حياتي»؟!..

- سارة؟

ضحكت:

- لأ ماجدة!!

كان قد مَرَّ شهر أو شهران قبل أن يستدعيني مديري مرة أخرى إلى مكتبه. هذه المرة لم يكن بوجهه صرامة لقائنا السابق. لعلي كنت قد نجحت في استرجاع ثقته، بعد أن أقنعته بخطتي فيما يخص أهل جاردن سيتي وشرعت في تنفيذها. امتلأ صوته بالبشاشة وغلبه تبسط:

- هل أنت مرتبط يوم الخميس؟!

- تحت أمرك يا فندم..

- أقصد مساءً..

لم أفهم فآثرت الصمت، وإن استنتجت أن طلبه لو مرتبط بمهمة من مهامنا، لما احتاج أن يستأذني:

- أنا والأسرة ذاهبون إلى حفل أم كلثوم، ومعنا تذكرة إضافية.. أتحب أن تكون معنا؟

استمر صمتي من مفاجأة العرض، وهو من يخاطبني سابقًا إلا آمرًا:

- ألا تحب الست؟!

- أعشقها.

- تمام؛ قابلنا أمام مسرح قصر النيل الخميس الساعة السابعة.

في المسرح، تجمع النجوم الجدد لمجتمع مصر. الرجال ببدلاتهم التي تحفظها دواليبهم لمثل هذه المناسبات، ورباطات عنقهم المنتقاة بعناية، تناسب لقاءهم المرتقب مع سيدة الغناء. أما السيدات، فقد ارتدين أبهى ما يملكن، في محاولة لمجاراة - ولو بقدر - ما يعرفونه عن أم كلثوم وتأنقها. الخاطر الذي سيطر عليَّ يومها هو كيف نجحت الثورة في إعطاء الحاضرين فرصة التمتع، بما كانوا يسمعون عنه دون أمل اختباره في العهد البائد؟!

* * *

- أتؤمنين بالاشتراكية يا نانسي؟

لاحظت هزة رأسها غير المترددة، وتوقعت قولها:

- أكيد، فهي الطريق إلى مجتمع أكثر عدلًا وسلامًا.

- كنت سأقلق عليك لو في سنك ولا تظنين ذلك. مع الزمن ستعدلين قناعاتك.

لا أدري إن كان صوتي قد علا بما كنت أفكر فيه، أم خواطري استمرت حبيسة دهاليز ذهني. رنين أفكاري غدا صدًى بداخلي ولم اتأكد أنها سمعتني أقول لها: إن الاشتراكية نظرية جميلة، تمنعها التركيبة الإنسانية من أن تنفَّذ وتسود. كنت أعيد على نفسي قناعات، رسختها قراءاتي وتجاربي ومشاهداتي عبر السنين بأن نفوس أنبياء اليسار، دون غيرهم، تقودهم إلى أن يكتفوا بتحقيق مآربهم في الاضطجاع على الملاءات الحريرية نَفْسِها، التي تركها خلفهم الإقطاعيون ممن ثاروا عليهم، ثم يضطلع الحرير بمهمة إلهائهم عما انتووه في بداية مسيرتهم..

دون شك سمعتني أقول:

- التغيير الحقيقي الذي يحدث عادة يكون فيمن يصبح له حق الاستمتاع بالسيجار الكوبي والكافيار الروسي..

أظنها امتعضت قليلًا، فأردت مصالحتها بوجهة نظر أكثر لينًا:

- وللحق أيضا تزداد تحت سطوتها رقعة الحالمين، ولكن لا يسمح لهم سوى بالحلم فقط..

عادت كلماتي ترن داخليًا بين أذنيّ، وكأني لا أريد أن أفسد عليها مثالياتها:

- تظل أحلامًا تغذيها ماكينات إعلامية أسستها الرأسمالية، وروّضتها الديكتاتوريات.

* * *

لاحظت أن مديري وزوجته لم يأتيا بابنهما، وأن من رافقتهما ابنتهما فقط. تعمدا أن تحتل المقعد الذي بجواري على غير توقعي. ماجدة ملامحها جذّابة دون مواربة، فهي خمرية اللون تقاطيعها مليحة، زاد من حسنها دماء مختلطة عرفت أنها تجري في عروقها؛ فورثت عن جدتها التركية أنفًا دقيقًا جميلًا، وعينين عسليتين خلابتين، وينسجمان مع فم وشفتين مكتنزتين مما ورثته من جدتها المصرية ، يكشفان - من آن إلى آخر - عن ابتسامة شديدة الجاذبية. كان أبهى ما فيها شعرها الأسود الناعم، الذي اختارت أيامها أن تصففه على شاكلة سعاد حسني، التي كانت ملهمة لخيال بنات جيلنا.

دار بينـا حديـث قصير قبل رفع السـتار، عرفـت فيه أنها تـدرس الفنون الجميلـة وأنها خريجة مدرسـة فرنسـية وأنها لا تحب أم كلثـوم، وإن كانت لا تمانع في سماعها أحيانًا.. أعجبني فيها أنها لم تخش أن تعلن أنها ليست من معجبي سـيدة الغناء، مؤكدة ملكيتها لشـخصية مسـتقلة. مع رفع الستار وبدء أم كلثوم في الشـدو، نسيت من يجلسون بجانبي ورفرفت نفسي بعيدًا تنشـد سـارة. لا أفكر إلا فيمن أقصاهـا الزمان والمكان عنـي. كل كلمة في هذه الأغنية كانت ومازالت تسـتدعيها دون غيرها، وكأن من كتبها أراد فقط أن يترجم مشاعري، التي لم تنضب يومًا نحوها.

- أتريدين أن تعرفي ماذا حدث بعد الحفل؟

أشجتني ضحكتها وسمعتها من بين قهقهاتها تقول:

-تزوجت أنت وجدتي؟

علت ضحكتي:

- ورثـتِ فراسـتي يابانسـي. بالضبـط، تزوجنا فقد كانـت خطة مديري وزوجتـه محكمـة. كانا قد قـررا أنني الزوج المناسـب والمختـار لابنتهن. فتوالـت اللقاءات التي رُتبـت بداية لتبدو وكأنها مصادفـة. وتبعها بعد ذلك كثير مـن المقابلات المقصودة. إحقاقًا للحق، لم أُجبر على هذه الزيجة؛ إذ تنامى إعجابي بجدتك التي وجدت فيها كثيرًا، إن لم يكن كل ما يريده رجل في شريكة حياته.

سكت لحظات أستدعي ذكريات مازالت على بريقها:

- هل تعرفين يا نانسي، أجمل ماقالته لي جدتك كان ليلة زفافنا. يومها صرحت لي أنها أحبتني، وأنها لولا وقوعها في غرامي ما تزوجتني. أنا أيضًا قلت لها إنني أحبها، ولم أكن أكذب فقد أحببتها فعلًا. ما طواه وأخفاه قلبي وقتها، كان أنني استمررت في حب غيرها أيضا. ظل حبي لسارة رفيق رحلتي واستمرت تحتل ركنًا في فؤادي، لا ينازعها أحد عليه.

في تسرع هو شيمة القلوب الفتية، أسمعها تستوقفني:

- ولكن يا جدي لا يمكن أن يعشق القلب اثنتين؟

- صحيح، ولكن من الممكن أن يحب أكثر من واحدة، ويظل العشق مقصورًا على مليكته المتفردة بعرشه..

تنبهت إلى الدفتر الأسود الذي تبرز حافته من جيبي، فأخرجته على مهل وفتحته، لا أدري ما يحوي فسقطت منه ورقتان أو ثلاث على الأرض، سارعت إلى جمعها وبدأت أعيدها حيث كانت. قبل أن أضعها مكانها، استرعى نظري وجود ورقة مطوية جعلها الزمن شديدة الاصفرار. فتحتها فوجدتها مملوءة بحروف، لم أعد قادرًا على استبيانها. تعثرت محاولاتي لتمييز المكتوب، وازداد مع حيرتي شعور عجز تسببت فيه حالتي التي قررت أن تحرمني من قدرة كانت بديهية على القراءة. أظن أن الجالسة بجواري أحست بيأسي، فشرعت تقرأ بصوت خفيض:

«أبي العزيز

أنا في مشكلة لا أستطيع شرحها في تلغراف أو مكالمة، فأرجو منك أن ترسل لي تذكرة عودة إلى القاهرة؛ لأعرض عليك ما أنا به وتساعدني على الحل.

ابنك

سامي»

تمتمت:

- مشكلة! وأي مشكلة يا سامي؟!

استرعت ساعتي الذهبية نظري من جديد، فنظرت إلى نانسي عارضًا:

- هل أقول لك حكايتها؟

تلذذت بالدهشة التي اعترت وجهها، فأردفت قائلًا:

- ولكن ما سأقوله سر. لا تستطيعين أن تحكيه لأحد.. بالذات جدتك..

4

- هي ماجدة زعلانة مني؟

وجهت سؤالي إلى نانسي بعد أن قمت من مكاني، وأمسكت بصورة تجمعني بها وهي طفلة. لم أنتظر ردًّا منها فتابعت:

- إذًا لماذا لا تسأل عليّ؟ أوحشتني! لها مدة لم تطل عليّ، وكلما سألت نور عنها، تدمع وتحتضنني في صمت. أين ذهبت أصلًا، ولماذا لم تخبرني بأنها ستغيب؟

اعترت يدي رجفة، وأنا ممسك بالصورة، حين استرجعت دموع نور التي تظهر مع ذكر ماجدة.

- أظنها لم تسامحني قط على فعلتي، وسامي لم ينسها لي.. قرأت مرة أن الرجال ينسون ولا يسامحون، أما النساء، فإنهن يسامحن ولا ينسين.. أتظنين ذلك؟

لم أسمع لها ردًّا يطمئنني..

- هل كنت على حق، في رأيك؟

أدركت أن نانسي لا تدرك عما أتحدث..

- أتذكرين متى التقطت هذه الصورة؟

أومأت مؤكدًا صحة ردها:

- نعم، مضبوط، عندما جئت تعيشين معنا..

صمت وجيز تبعته بما أراحني سماعه:

- نعم، كنت على حق وفعلت الصواب رغم مشقته..

- كان أول لقاءاتنا يا شقية وكان غرامًا من أول نظرة. حين عدت إلى البيت يومها، كان وجه ماجدة يشع سعادة. أخذتني من يدي، ومشت على أطراف أصابعها، واصطحبتني إلى غرفة أبيك ففتحت الباب على مهل، وجعلتني أنظر بداخلها؛ لأفاجئ بسامي ممددًا على سريره وفي حضنه ملاك أشقر، مستغرقَيْنِ في النوم من إثر رحلتكم المفاجئة. لم أستطع أن أستجيب لإلحاح ماجدة بأُلا أزعجكم. فخطوت داخل الغرفة، ونقلتك من بين أحضانه إلى حضني. تلك اللحظة لا تفارقني يا نانسي؛ فقد فتحت عينيك وفركتيهما ولم تفزعي، بل لففت يديك حول عنقي وضممتني في أريحية، وكأنك، اعتدتِ عناقي. موضع كفيك الصغيرين يومها على رقبتي، مازلت أشعر بهما حتى الآن؛ فذكرى ملمسهما مازالت تدغدغني، وتدفع الابتسامة إلى شفتيّ.

أظن أن المشكلة التي واجهت أهل البيت وقتها، كانت إصراري على حملك باستمرار وأنت تشارفين الستة سنوات. فإن تنازلت عن ذلك، فلا تفارق يدك يدي أينما كنا، إذا تركتك تمشي على قدميك.. كنت أستعوض كل السنين التي فاتني فيها احتضانك كما أبتغي وينبغي، ومُنعت أثناءها من

التمتـع بوجودك المسـتديم فـي حياتي. لم تكفني اللحظـات الخاطفة، التي سُـمح لي أن أراك فيها أثناء زياراتي للندن منذ ولدت. كانت عمتك نور من غيرتها تقول لي ضاحكة كلما رأتنا معًا:

- لا أذكر أنني تمتعت بمثل هذا..

تفوتني لهفتها على أمومة تأخرت، فأرد دون كياسة:

- أعز الولد ولِد الولد يا أستاذة نور..

أما سامي، فكان مقتضبًا، على الأقل معي، إلى أن بادرته بسؤالي:

- ستوحشني نانسي جدًّا حين تعودا إلى لندن.

- لا أنا ولا نانسي عائدان إلى لندن.. لقد قبلت عرض وظيفة بمستشفى بفرانكفورت وسـتبقى نانسـي هنا معكم أنت وأمي، إلى أن تستقر أوضاعي في عملي الجديد.

- وأمها؟!

لـم يجد سـامي يومها حاجة لإجابة أكثر من ابتسـامة باهتة وإعادة لآخر ما قاله:

- نانسي ستبقى هنا معكم أنت وأمي..

كان ذكاء سـامي باديًا دائمًا، يغلف بمهارة محسوبة كل ما يقوله ويفعله، أظنـه يومها قصد تقديمي على ماجدة فيمن سـيرعاكِ، فنجح في اسـتقطابي ولعـب على أنانية الحب ورغبة الاسـتئثار، التي تملكتني، فغلبت سـعادتي في الاحتفاظ بك على مناقشـته فيما اسـتقر عليه. لم يطـف بفكري لحظتها

الأصلح لك أو ما قد تتوقين له.. كل ما سيطر عليَّ وقتها كان الإضافة المبهجة التي ستضفيها على حياتنا، بعد أن تصبحي شمسها.

ملأتِ علينا البيت يا نانسي، واجتهدنا جميعًا في احتلال أماكننا في مداراتنا من حولك. ابتسامتك غدت إضاءة اليوم، ولحظة عبوسك لأي سبب كانت كفيلة بقلب أحوالنا إلا أن تغرب.

- أتذكرين أنني نقلتك إلى حجرة نومنا، ولم يعد مسموحًا لك بالنوم إلا بيني وبينها.

- أذكر ذلك كأنه بالأمس. من الغريب أن هذه الذكريات مازالت بهذا الوضوح في ذهني.. كل كلمة تحكيها أراها أمامي وكأن سنين لم تمر..

- أتدرين يا نانسي لم أكن أستطيع نومًا دون أن أعانق كفك الصغرى بكفي. فيما بيني وبين نفسي، كنت أستغرب جدًّا هذا الكم من المشاعر التي اختبرها نحوك؛ بالأصح لم أكن أظن أن لي قدرة عليها، ثم بدأت طفولتك تعلن لا إراديًّا عما لم تستطيعي أن تعبري عنه قولًا في سنك تلك.. أظن أن سفر سامي كان قد أصبح وشيكًا، وأخطرك هو بذلك ببرودة مشرط الجراح، الذي برع في استخدامه في عمله. في البداية قلّ كلامك حتى غدا صمتًا مطبقًا، تكتفين بهز رأسك إيجابًا أو نفيًا كردود على كلامنا معك، ثم قررت أن تضنِّي علينا حتى بالإيماءات. وتلا ذلك سقم والآم بأمعائك، احتار معها الأطباء وأولهم أبوكِ إذ لم ينفعهم فحصهم ومحصهم لكل ما قد يكون مسببًا لذلك. كنت تظنين أنك توارين عني دموعك، ولكني كنت أشعر بها تنساب على وجنتيك كل ليلة، قبل استسلامك للنوم في حضني. لعل ذعرك بلغ منتهاه يوم بللتِ فراشنا، أنا وجدتك، قبل ميعاد سفر سامي

بليلة أو ليلتين. فزعت ماجدة من نومها ليلتها، وأيقظتني في صمت، وبنظرة حزينة حائرة لاتزال محفورة في ذهني حتى يومنا هذا، قالت:

- لعلها مشتاقة لأمها.. مسألة وقت وستنسى.

سامي احتفظ بوجه جامد. حين شاركناه ما حدث تلك الليلة.. لم يجد فيما كنت تخابرين ما يرقق قلبه رغم أن فؤادي انشطر جراء بؤس، لم أقدر أن أمنع عنك معاناته.

- هل طبيعي ألا تسأل عنها أمها ولو لمرة واحدة من وقت ما وصلت مصر؟

فوجئت ماجدة بسؤالي، فتلعثمت قليلًا قبل أن ترد:

- أمها لا تعرف أنها هنا.

- لا تعرف؟!

- نعم، سامي عاد بها دون إذنها.

- دون إذنها؟! خطفها يعني؟

- وهل يخطف الأب ابنته؟ ما الذي تقول؟!

- وهل طبيعي أنه يأخذ البنت دون رضا أمها... أترين هذا أمرًا عاديًا يا ماجدة؟

- يعني أنت تفضل أنها تتربى في الغربة. أترى أن أمها أقدر على تربيتها عني مثلًا؟

- لو أن ما تقولينه منطقي، لتم تسليم كل الرضع لجداتهن. أنسيتي موقفك أنت وسامي من هذه البنت وأمها؟

- أتريدنا أن نترك البنت تشب في بلاد لا تعترف بتقاليدنا؟!

كنت أعرف أنه حوار بلا نهاية ولا نتيجة فآثرت انسحابًا، وأنا مذهول من معلومة أنك بين أحضاننا دون أن تعرف أمك مكانك. أي قسوة تلك التي تجعل إنسانًا يقرر حرمان أم من طفلها؟!

توقفت عن السرد وأنا أغالب دموعًا سالت على وجهي، وأنا أحاول إعادة ذكريات إلى حيث ظننت أنني أحسنت دفنها. أحسست بحضنها لي، وجاءني همسها:

- لم أشعر يومًا أن لي أبا غيرك يا جدي..

حضن نانسي الدافئ ودموعي التي فاجأتني، مضافًا إليهم المقعد الوثير، تجمعوا عليّ فسلموني إلى قليل من النوم كنت في حاجة إليه. حين أفقت، أحسست بحمرة خجل تكسوني جراء لعاب طفولي سال من جانب فمي فبلل ذقني. رفعت يسراي أجفف وجهي بطرف كمي، فعادت ساعتي الذهبية إلى مرمى نظري.. شخصت في الساعة، فلم أجد سوى عقربين لم أستطع تفسير نفورهما من بعضهما ومطاردة كل منهما للآخر. لم تعد أشياء كثيرة تجد مكانًا لها بمركز الترجمة المعطوب بذهني. إلى جانبي، كان السهد قد تغلب على نانسي أيضًا، فاستكانت بوجهها الصبوح نصف المبتسم مستمتعة بشيء من الغفوة، أو لعلها ترتاح لوهلة من لغوي المستمر.

حيـن ننظر لأفعالنـا في الماضي، كثيرًا ما نكتشـف أننا لـم نكن بالدهاء الـذي ظنناه حيـن خططنـا ونفذنا. فـي الأغلب يتدخـل القـدر، أو الطرف المتلقـي لمبتغانـا فيسـهلون وصولنا لمرادنا، رغـم قناعتنا؛ بـأن ذكاءنا كان السـبب الأوحد في نجاح المقصـد. أجمل ما في الماضـي أن بصيرتنا فيما يخصـه مـن مقعدنا فـي الحاضر تكـون دائمًا حـادة بعد أن ينصـرم، وأقوى دروس الحيـاة أننا نلامس أدنى درجات الغباء في لحظات كنا متأكدين فيها أننا أعملنا أقصى ذكائنا.

كانت قد مرت عدة أيام على اسـتدعاء والد ماجدة لي في مكتبه، ونهره إيـاي على تكـرار زياراتي لبيت سـارة في جاردن سـيتي. كان التهديد الذي غلف كل كلمة ألقاها على مسـامعي في مكتبه، قد وثق عراه مع طلب سـارة منـي، فأحكما متحديـن إثقال كاهلي ما بين مسـتقبل وظيفـي مهدد وحبيبة تطلب لأول مرة.

لعلهـا بداية وضعي ليدي على أهم ملكاتـي، وهي القدرة على الخروج مـن المآزق بأقل الخسـائر أو في حالات كُثر بمكاسـب، وأهم مفاتيح هذه القدرة كانت موهبة إقناع الآخر بما أرنو إليه.

دخلت على مديري مبتسمًا بشوشًا:

- أنـا فقط أريـد لحضرتك أن تعلم أن زياراتي المتكررة لجاردن سـيتي كانت من صميم عملي..

نظر مستغربًا وأشار إليَّ أن أكمل ما بدأته:

- هذه العائلة من بقايا الإقطاع، مضبوط؟

إيماءة منه كانت كافية لاسترسالي:

- ونحن نريد الخلاص منهم لصالح الشعب وهذه أهم مهامنا هنا، صح؟ دعني أقول لسيادتك إن أسباب زياراتي، هي في الأساس لأكسب ثقتهم وأستكشف مخططاتهم. وقد حدث هذا ولعلي الآن أستطيع أن أهنئ حضرتك بأننا بصدد إحراز انتصار مبين على هؤلاء الإقطاعيين..

- انتصار؟ هات ما عندك دون تطويل..

- لقد توصلت إلى اتفاق بسيط معهم، وفي الوقت نفسه يحقق أهدافنا. لقد أقنعتهم أن يتنازلوا - دون مصادرة - عن كل ما يملكون في مصر، وبعقد رسمي مسجل لصالح الجمهورية.

عند تلك النقطة، كنت قد استحوذت على كل اهتمامه، فقال:

- يتنازلوا؟

- نعم، سيتنازلون وسيكشفون عن كل ما يملكون دون حاجة منا إلى تفتيش أو بحث من أي نوع..

- وما دافعهم لذلك؟

- أقنعتهم بأننا في مقابل ذلك - سنتركهم يغادرون البلد؛ مثلهم مثل ملكهم الفاسد، ومن بعدهم زمرة الأجانب واليهود الذين تبعوه.

ما تلا ذلك من تفاصيل كان ميسرًا وسريعًا وبلا أي عوائق؛ إذ سرعان ما جاء اليوم الذي رافقت فيه سارة وأمها وأختها إلى مطار القاهرة حين حصلت على توقيعاتهم على التنازل عن ممتلكاتهم، وكنت قد نقلت ما تبقى من مجوهراتهم إلى بيتي، على وعد بأن أسلمها لهم في المطار. كان تنازلهم عن بقايا أطيان تبقت لهم، وشقة جاردن سيتي.. أما ما حفظته

لهـم، فكان ما سـيبدأون به حياتهم الجديـدة في أوروبا، إضافـة إلى ما كان أبوها قد ترك لهم من ثروة صغيرة تنتظرهـم هناك.

في المطار، سـلمتهـم أمانتهم التي كانت لديَّ. وقبل أن يغادروا، خطت سارة خطوة أو خطوتين نحوي، مبتعدة عن أمها وأختها:

- أمـي تريدك أن تأخذ هذه السـاعة.. كانت المفضلـة في مجموعة أبي من الساعات. أمي تراها مكافأة لك على مساعدتنا..

ثم سكتت برهة:

- ولكننـي أريـدك أن تأخذها لتتذكرني بها، ولكـي لا تنس أن هناك قلبًا شغف بك ولكن الظروف لم ترض له أن يكون لك.

لـم تكمـل الجملة، ودسـت السـاعة فـي يدي فـي عجالة، واسـتدارت مسـرعة دون أن تتيح لي حتى أن أسـتكمل وداعها. يومها اختلطت مشـاعر حـب مـع فراق مع حـزن على لحظة انكسـار لأولئك الذيـن اضطرهـم أهل وطـن يحبونـه أن يفـروا من ظـلام أحاط بهـم إلى مسـتقبل مبهم خـالٍ من المعالـم.بعد أن اختفت وسـط زحام المسافرين، أدركت لماذا أصرت سارة علـى عدم الإفصاح عن وجهتهم النهائية؛ أرادت أن تجنب نفسـها وتجنبني لوعة انتظار لقاء لن يحدث منطقيًا.

ابتسمت وأنا أرى نانسي متثائبة تستفيق:

- ما رأيك في قصة ساعتي؟

لاحظت اندهاشـها من قصة ساعتي واسـتغربت أنها لم تبد إعجابها بما سـردت، ولكن مشهد المطار كان قد أحكم سيطرته على مخيلتي. من ركن

بعيد في عقلي، ذهبت سارة ولحظة وداعها، وتسلل سامي ليكون البطل يوم أوصلته ليركب الطائرة، في طريقه لاستلام عمله بفرانكفورت.

- مقتنع بما تفعله؟

- العرض من مستشفى فرانكفورت فرصة عمري..

- لا أقصد ذلك.. بل قصدت فيما يخص نانسي..

- بالتأكيد الأفضل لها أن تربيها أمي..

- ظننتك قلت إنك ستأخذها معك فور أن تستقر..

- أظنني سأحتاج بعض الوقت والتركيز، قبل أن أستطيع أن آخذها معي..

- وأمها يا سامي؟ هل طبيعي أن تحرمها منها؟

- أتفضل أن تعيش نانسي وسط الأجانب؟!

- أولًا، هم ليسوا بأجانب بالنسبة لها فهذا وطن أمها.. وثانيًا، الأم مهمة جدًّا في تنشئة الأطفال، وعدم وجودها في حياتهم له تأثيره سلبي عليها بلا أدنى شك..

- لا أريدها أن تنشأ هناك، ولا أحب أن أرى فيها ما رأيته في أمها.

- ولم لم تفكر في ذلك حين اخترت أن تكون معها ولو للحظة؟!

- طيش شباب، أحاول الآن أن أصلحه..

- قررت أن تعاقب أمها، ونسيتَ أنك تعاقب البنت في الوقت ذاته.

- لا أريدها أن تربي ابنتي!!

- ألـم يكـن الأجـدر أن تظل في لندن مـن أجلها فتسـتمتع البنت - ولو قليلًا -بوجود الأب والأم في حياتها؟

- فرصة فرانكفورت لن تتكرر..

- تختـار ألا تتـرك فرصـة، والمقابـل أن تضحي بحياة شـخصين منهم ابنتك..

- إذا كان وجـود نانسـي عندكـم يضايقـك إلـى هذا الحد، سـأجد حلًّا سريعًا كي تلحق بي في فرانكفورت.

- لـم أقل هذا ولكنني لا أسـتطيع اسـتيعاب ما أنت بصـدده. أنت تعلم جيدًا كيف أعشق نانسي فلا تحاول أن تظهرني في صورة من لا يريدها. كل ما في الأمر أنني لا أفهمك؟

- وما الذي لا تفهمه؟ لا أريدها أن تعيش هناك بعيدًا عن عالمنا..

لم أستطع أن أتحكم في ضحكة تهكم، راوغت ما حاولته من كبتها:

- وأنت الذي قرر أن يهجر عالمنا؟

- أنـا فـي سـن يسـمح لـي بالاختيـار، ومـن حقـي أن أعيش فـي عالـم أفضل..

- عالـم أفضل لك أنت فقط؟ أي أنانية هذه؟

- أو ليس كل أب أنانيًا فيما يخص ابنته؟

لحظتهـا تبـدى لـي سـامي، الوجـه الآخـر لمـن يهجروننـا ليسـتمتعوا بحرياتهـم، ويريدونا أن نرزح نحن تحت تصوراتهم لمدينة فاضلة يحلمون بها، مثله كمن يصرخون مطالبين بتطبيق شـريعة في عالمنا من منابر تحميها ليبرالية الغرب.

انتفض سامي منهيًا نقاشنا:

– ميعـاد طائرتـي أزف ولا تقلق، لـن أحملكم عبئهـا طويلًا. أراك على خير.

لـم أعد يومها إلى مكتبي كما كنت مخططًا، بل ذهبت إلى القنصلية. لم يطـل اجتماعي طويلًا مع القنصـل البريطاني، الذي وافـق على مضض بأن يسمح لي بالمغادرة، على وعد بمقابلة في اليوم التالي مع أمك، التي اتضح أنهـا وصلـت القاهرة، بعـد يومين من وصولك مع سـامي بحثًـا عنك، كما عرفـت أيضًا أنها كانت على اتصال بأبيك مـن لحظة وصولها، وأنه حذرها من أن أي محاولات قانونية لاسـتعادتك سـتصطدم بصخـرة قانون مصري يحميه.

بدأ لقائي مع أمك متوترًا:

– ابنك يظن أنه سيستطيع أن يهرب بفعلته! القانون الأوروبي في صفي، وسأقلب حياته جحيمًا حتى أستعيد نانسي.

– أنا هنا من أجل نانسـي ودافعي الوحيد أن تعيش في سـلام.. ما بينك وبين سامي مشاكلكم أنتم فلا تقحموها فيها. وإن كنتما ترغبان في الأفضل لنانسي، كما تدعيان فيجب أن تتعقلا..

- وهل أفعاله عاقلة؟

- اسمعي، مرة أخرى أنا هنا من أجل نانسي ومن أجلها فقط. لي شروط إن قبلتها سنحل الموقف، وإن عاندتي فدعيني أخبرك بأن سامي لم يرث إلا قليلًا من عنادي..

أظن أن نبرة الحزم في كلامي أجبرت ليزا على أن تنصت لما أمليت:

- سأسلمك نانسي في المطار بعد غد لترجعي بها إلى إنجلترا. ولكن قبل هذا ستوقعين ومعك سيادة القنصل، شاهدًا على هذه الوثيقة التي أعدها المحامي والتي تقرين فيها بأنها كانت هنا بموافقتك ورضاك في إجازة مع أبيها، وأن أي بلاغات قمت بها كانت محض افتراء، كما أنك ستتعهدين بتمكين سامي من رؤيتها وقضاء وقت معها وقتما يشاء، وأنك لن تمنعيها عنه لأي سبب، وأن نفس حقوقه في الوثيقة تنسحب عليّ وعلى جدتها وعمتها؛ مفهوم؟

* * *

- أظن يا نانسي أن ليزا قدَّرتني بعد هذا اللقاء، أو لعلها حتى أحبتني.. كان ثاني لقاء لي بها وكلا اللقائين كانا مشحونًا..

مرة أخرى، كان المطار محل حزن لا وصف له.. حين أفلتي يدي وجريت نحو أمك لحظة رؤيتك لها، أدركت أنني استبدلت كامل سعادتي بالضئيل والمتاح منها في مقابل اكتمال حياتك..

كلما استرجعت تلك اللحظة، امتلأت بنفس السكينة التي غمرتني وأنا واقف في المطار أراك مغادرة، ولا أعلم متى سأحضنك مجددًا. نظرتان

متباينتان نحتنا مكانهما في ذاكرتي: التفاتتك الأخيرة نحوي يا نانسي، وأنتِ متشبثة بيد أمك، قبل أن تختفي وسط زحام المسافرين، وتلك النظرة التي رمقتني بها ماجدة ساعة عدت إلى البيت، ويدي خاوية من حفيدتها. لطالما اعتددت بقدرتي على قراءة النظرات إلا مؤخرًا، حين غدا تفسير أغلبها أعتى من مقدرتي.

- النظرات أبيات شعر تقرضها عيوننا... أتحبين الشعر يا نانسي؟

5

« شهر ديسمبر، يبقى ملكًا بين الشهور

فهو أعطاني مفاتيح السموات...

وأعطاني مفاتيح العصور...

ورماني كوكبًا مشتعلا

حول نهديك يدور...

سقطت في لندن، كل التواريخ،

وغابت تحت جفنيك جبالٌ وبحور...

شهر ديسمبر، ألغاك.. وألغاني..

فنحن الآن ضوء غير مرئي...

وعطر... وبخور...

شهر ديسمبر.. مجنونٌ تعلمت به

أن تثوري...

وتعلمت به كيف أثور...

شهر ديسمبر...

ألغى عقدة الحب التي نحملها

فإذا بي مثل عصفور طليق...

وإذا بك يا فاطمة،

بلا جذور»

- هل تعرفين يا نانسي عمن يتكلم نزار؟

أدركت من صمتها أنها أصلًا لم تفهم ما تلوته على مسامعها من شعر قباني، فأعدت قراءته مرة أخرى ببطء متعمد، ثم أعدت السؤال فوجدتها تتساءل باستغراب:

- عن لندن؟

- لا طبعًا... جربي مرة أخرى.

سكتت متفكرة.. ثم همهمت بلا ثقة:

- عن واحدة اسمها فاطمة؟!

قهقهت بصوت عالٍ، ثم فاجأتها بما أدركته يوم سمعت القصيدة لأول مرة:

- أنا متأكد من أنه استوحاها من قصتي أنا وسارة. لا يمكن أن تكون مصادفة! لو غيّرنا فاطمة بسارة لأصبحت أنا الشاعر؛ لذلك أحفظها عن ظهر قلب.

الغريب أنه كان شهر ديسمبر فعلًا، حين وصلت لندن لأول مرة.. لم تكن سارة على راداري في هذه الزيارة فلم أكن أعلم أين حط بها ترحالها، بعد خروجها من مصر. سنين مرت في عجالة، منذ ودعتني في مطار القاهرة. استمرت ذكراها متوارية تدفئ ركنًا أثيرًا من قلبي، فيما انغمست أنا في متواليات الحياة من زواج وعمل وأسرة تتكون وسط خضم وطن موجه عالٍ. ولكن الرحلات لا تبدأ عند الوصول الآمن للبلد المقصود، بل تسبقها مقدمات مدهشة تشكل ذكريات السفر.

- ستؤسس شركة خاصة.

اعترتني دهشة أدرك معها مديري أنني لم أستوعب تعليماته:

- ستستقيل من الجهاز، وسنساعدك في تأسيس شركة خاصة. ستحصل فورًا على مجموعة توكيلات مهمة للبلد. ستسافر خلال أسبوع أو اثنين إلى إنجلترا لتوقيع عقود الوكالات.

- هل هناك شيء في أدائي جعل حضرتك تأخذ هذا القرار؟

ابتسم رئيسي بسعة:

- فعلًا، أداؤك الممتاز جعلنا نختارك أنت واثنين آخرين لنبدأ بكم.

- تبدأون بنا؟

- اسمع دون مقاطعة... تعرف توجه الدولة الجديد نحو الانفتاح الاقتصادي، ولكننا لا نستطيع في يوم وليلة أن نترك تحكمنا في كل الأمور. سيأتي يوم في المستقبل يقوى فيه عود القطاع الخاص، ويعمل في كل

شيء. ولكن خطتنا حاليًا أن تظل بعض المجالات تحت سيطرتنا من خلال رجالنا الذين نختارهم. تنقطع صلتهم الرسمية بنا وإن ظل ولاؤهم مضمونًا بحكم أنهم تربيتنا، ولأننا سنستمر في دعمهم. لقد كان اختيارك نتيجة كفاءة وثقة؛ ولا تنس أننا نضعك على طريق ستظل مدينًا به لنا مهما كبرت. وتذكر أنه ستكون لنا مطالب وإن ظل ولاؤهم مضكونًا بحكم

غير قابلة للتفاوض في أحيانٍ كثيرة؛ مفهوم؟

الحقيقة، أنني فهمت وأدركت ما أنا بصدده. وأنا عائد للمنزل يومها، امتلأ ذهني بشريط أحداث مصورة لما شهدته مصر منذ وعيت.. صراع ضد الاستعمار والإقطاع، مشاعر وطنية تمتد وتتوسع لتصبح عقائد قومية تتعدى الوطن، وفي أوجها تجيء نكسة فتردينا منكسرين مقهورين. تساقطت الأقنعة وأدركنا زيف الشعارات، وانتكست رؤوسنا بعد أن صدقنا ما باعه لنا من ظنناهم حماة الوطن. سرعان ما يرد الصفعة انتصار، يعيد إلينا كرامة ظنناها اندثرت وتبعثرت؛ لنفاجئ أنفسنا بأن جذوتها ظلت مشتعلة، لا يجرؤ أحد يومًا أن يقربها. ونعود مسارعين، عن طيبة وحب؛ لنبدأ إعجابًا متطرفًا كعادتنا لحامي حمانا البديل!!

ومع كل تطور، يلقنوننا محاسن التوجه الجديد مع كل تحول يفتحون أفاق الأمل في توهج وطن وازدهار، هو مبتغى كل الذائبين فيه عشقًا، ثم ما نلبث أن نصل إلى نقطة جديدة تحتاج دورانًا يحتمل أن يكون معاكسًا للطريق الذي بدأناه. حينذاك لا يكون هناك بديل عن اعتناق تعاليم وجهتنا الجديدة والإيمان بصلاحيتها، ولفظ كل ما سبق أن جعلونا نؤمن به. لقد أفرزت كثرة تغيير الاتجاهات وتزاوجها هجائن ممسوخة من البشر تقدموا الصفوف أحيانًا، مباركين وصم الشعب بالعبودية.

- تستقيل؟ شركة قطاع خاص؟ قل لي الحقيقة: رفتوك؟ ماذا فعلت؟ يا مصيبتي!!!

تساؤلات ماجدة كانت كلها شرعية وهي من جيل ابن جيل حفظ - عن ظهر قلب - أن الميري لا أمان إلا بين ربوعه.. لم أكن أستطيع أن أشرح لها باستفاضة عن أن هذا اختيار لتفوقي وثقة في قدرتي وولائي من جانب القائمين على الوطن؛ فالسرية كانت مطلوبة ومفروضة على أقرب الأقربين. فقط أعلنتها:

- أنا لا أستشيرك، أنا فقط أخبرك..

في المستقبل، وبعد رحلة نجاحي في مجال الأعمال ومع الثراء الواسع، وما تبعه من ترف الترف الذي رفلنا فيه، كانت ماجدة تفاخر دائمًا بين أصدقائها:

- أنا من شجعته على ترك وظيفة الحكومة ووقفت بجواره وقت بدأ عمله الخاص..

كنت أبتسم وأنا أسمعها، تاركًا لها متعة التفاخر بما خطط له آخرون بدقة. أبتهج كلما تذكرت كيف ودعت عقيدتي الاشتراكية دون عناء؛ لأستمتع برأسمالية مليئة بالمباهج، ظللت سنوات يفوعي ألعنها.

* * *

- بما أنك إنجليزية يا نانسي، قولي لي: كيف تعرفين أنك في لندن؟

توقعت تسرعها:

- عندما أرى أتوبيساتها الحمراء ذات الدورين؟

- كان زمان، ولكنها تكاد تكون اندثرت... لك محاولة أخرى.

من جديد، أجابت بتسرع:

- عندما أرى برج لندن وساعة بج بن في الأفق..

- وان لم تريهما!!!

أرحتها من فضول تسلل إلى وجهها:

- الإجابة: تاكسي لندن. الشيء الوحيد الذي لم يتغير؛ مدينة علامتها تاكسيها الأسود بتضاريسه التي ترده إلى زمن سابق. وكما شكله الخارجي، حافظ سائقوه على تقاليد، أضحت روح لندن، بل إنجلترا كلها متشخصة فيها.

أجمل ما في ديسمبر في لندن أنها كانت متروكة لأهلها؛ فالبرد يمنع تحولها الصيفي إلى مرتع للعرب. أتذكر دائمًا فجاجة اعتراض نزار قباني على تعريب لندن:

«هل أصبحت إنجلترا؟

تمشي على الرصيف، بالخف. وبالعقال.

سبحانه مغير الأحوال!!»

في بدايات الهجوم العربي على شارع أكسفورد، لم يكن الامتعاض يفارق وجوه أهل المدينة من هذا الغزو. ولكن كما يقولون في أميركا: «الأموال تتحدث». كم تغيرت معاقل التقاليد وحصون البروتوكول، فتساقطت القلاع الواحدة تلو الأخرى. كان السقوط الأخير يوم فتح هارودز العريق

أبوابه لرحلات الشـراء أيام الأحاد، ضاربًا أصالته بعرض الحائط.. لم يطل الوقت قبل أن تقع ملكيته وغيره من مفاخر الإمبراطورية، التي لا تغرب عنها الشـمس، فـي براثن من كان الإنجليز يعرفونهم بسـكان المسـتعمرات. بيعُ هارودز بالذات أعلن رفع الراية البيضاء، ومن بعده توالت مراسـم استسلام معاقـل الأصالـة البريطانية الواحد تلـو الآخر. استسـلمت بريطانيا بأكملها لرغبات بلاد النفط التي داعبتهم بأوراق البنكنوت فأسقطت حصونهم بأقل مقاومة.

* * *

كنت في التاكسي الأسود، أستمتع من نافذته بزينات عيد الميلاد الرائعة التي تزين وجه شـارع أكسـفورد زينة العروس يوم زفافها.. أتذكر أن السائق كان يحكي لي عن مباريات دوري كرة القدم المشـتعلة في ذلك الأسـبوع، بعد أن كان قد انتهى من إدلائه برأيه في مقتل السـادات. توقفت بنا السـيارة أمام محل سـلفردجز الشـهير، فلفت نظري في أحد شـبابيكه الواسعة سيدة تقوم بإلباس المانيكان فسـتان سـهرة أسود كانت روعته في بساطته. مع بدء تحرك التاكسي من جديد، بُهت حين أدركني الشعر الأحمر المجدول بعناية متوجًـا وجه تلك السـيدة الجميـل.. علت شـهقتي حين تبينت أنها سـارة! ظللـت ملتفتًا والسـيارة تتحرك أحاول أن أسـتزيد ممن كانـت رؤيتها حلمًا لـم أظنه يتحقق يومًا.. أصابني دوار لذيـذ، ومعه توقفت أي قدرة لديَّ على التفكير قبل أن أفاجئ السائق بصيحتي:

- توقف.. أنزلني!!

تتصورين طبعًا يا نانسي ركضي من لحظة نزولي إلى المحل من جديد.. كنت كالمهووس أتنقل من نافذة عرض إلى أخرى محاولًا أن أجدها حيث رأيتها من لحظات، ولكن لم يكن بالنوافذ إلا مانيكانات حسنة الملبس خاوية من الحياة.. توقفت، ألتقط أنفاسي، وأؤكد لنفسي أنني لم أشهد سرابًا؛ إذ كيف لسراب أن يتبدى وسط هطول أمطار ديسمبر في مدينة الضباب. دلفت داخل سلفردجز، وسارعت صعودًا على السلم الكهربي العتيق إلى الدور الثالث الذي كنت قد اشتريت منه قبل يومين فستان سهرة لماجدة، هدية الرجوع. ما أن حطت قدمي الطابق المقصود حتى استولى الشعر الأحمر على عينيَّ من جديد، ورأيتها واقفة عن بعد تتحدث مع أحد المتسوقين.. اتجهت ناحيتها.. رجل تتقدم وأخرى تتأخر يقودهما قلب تسارع نبضه، ومشاعر كثيرة أخرى غير مفهومة تتملك جسدي.. حين وقفت خلفها، بالكاد تسلل صوتي من بين أنفاسي المتسارعة همسًا:

- سارة؟

التفتت هي ناحية الصوت ليتوقف الزمن؛ فعقارب الساعة لا تبطئ ولا تتسارع، فقط تتثاقل أو تخف على قدر السعادة التي بمحيطها.. تسمرنا، نمعن البصر كل فيمن أمامه، ثم تقدمت نحوي ومدت ذراعيها تضمني إليها؛ احتضنتني كما لم أعرف الحضن يومًا.. ضمة طويلة لا جزع فيها ولا استعجال.. نستعوض بها سنوات فراق فرت من بين أيدينا، وتنتقل ما بين أجسادنا محبة وشوق ثابرا حتى كان اللقاء.

أطلت مكوثي في لندن يومين آخرين، تمارضت فيهما سارة لتأخذهما إجازة عارضة من عملها. قضينا كل لحظة فيهما معًا فأذكر أننا لم ننم في

هاتين الليلتين.. تحكي لي عما مرت به، ولا أترك تفصيلة عشـتها في غيابها إلا وأشاركها إياها.

حكـت لـي بداياتهـا مـع الوصـول إلـى إنجلتـرا، وكيـف أصـرت أمها ألا تتنازل، ولو ذرة، عما تعودته من أرسـتقراطية العيش في مصر.. حاولت أن تحاكـي فـي بلد منفاهم ما لم يكونوا قادرين عليـه. تبخرت الأموال التي كانت تحت أيديهم بسرعة قياسية من فرط بذخ الأم غير المحسوب. تبتسم بأسى وهي تصف لي وجه أمها في أول يوم، اضطرت فيه سارة إلى أن تعمل لتعيـل أمًّـا لم تقتنـع يومًا بأن تقتر على نفسـها، وأختًا أصغر من أن تسـتطيع المعاونة. سرعان ما اختارت الأم مغادرة الحياة؛ عوضًا عن معاناة في عالم لم تسـتطع أن تواكب ما يفرضه عليها من شـظف.. سـنين قليلة تلت رحيل الأم قبل أن تشـد الأخت رحالها إلى أسـتراليا، مرافقة زوجًا إنجليزيًّا اختار الهجرة إلى القارة الشابة. أصبحت سارة وحيدة، أيامها متشابهة لا طعم لها في بلد تتكلم لغته وتعيش عاداته، ولكنها من داخلها لم تسـتطع هجرة إليه، فظلت تستنشق رحيق وطنها الحقيقي من ذكريات ما قبل لفظه لها.

- هل ارتبطت؟

- ظننـت مرتيـن أننـي وقعت في الحـب، ولكن في كل مـرة كنت أعود أدراجي منكسـة الرأس. الرجلان كانا ممتازين يعاملاني كملكة، ولكن كان هنـاك شـيء ناقـصٌ دائمًا. تلـك الحمية التي رأيتهـا في والـدي، الغيرة غير المحـدودة حيـن يتعلق الأمر بالمرأة لم تكن فـي تركيبتهما أو الرجولة التي فاضت منك من فرط حبك لي، فخاطرت رغم إدراكك وتأكدك من أنني بما أطلبه منك لن أكون لك.

تستكمل حديثها عن علاقاتها في لندن:

- لـم يقصـر أحدهمـا في حبـي، ولكن لـم ينجـح أيهما فـي احتوائي؛ المشـاعر وُجـدت ولكن رافقها صقيع دائم لم أستسـغه. لـم يكـن فتورًا، بل برودًا موازيًا لطقسـهم، لم أستطع تجاهله والتعايش معه. في كل مرة قررت الانفصـال لم يفهما أسـبابي، والحق أنني لم أجد كلمات أفسـر لهما به دفئًا لم يعهداه.

ألحـظ كم كان تركيز نانسـي فيما أحكـي، فأتوقف قليلًا ألتقط أنفاسـي قبل أن أعاود:

- تعرفيـن الآن يا نانسـي أنني مغرم بالشـعر، وبأم كلثوم طبعًا... سـارة أيضًا عشقت الشعر لما دندنت لها:

«سوف تلهو بنا الحياة وتسخر

يا حبيبي طاب الهوى ما علينا

لو حملنا الأيام في راحتَيْنا

في بحار تئن فيها الرياح

ضاع فيها المجداف والملاح

كم أذل الفراق منا لقاء

كل ليل إذا التقينا صباح

يا حبيبا قد طال فيه سهادي

وغريبًا مسافرًا بفؤادي

سوف تلهو بنا الحياة وتسخر »..

حيـن انتهيـت مـن الأبيـات امتزجنا فـي قبلة طويلـة توقفت مـع توقف التاكسي أمام مطار هيثرو، وأنا أبدأ على غير رغبتي، رحلة عودة لا مفر منها إلى مصر.

توقف السـرد في ذهني، وكل حواسي تستعيد طعم أولى قبلاتنا.. سرى الدم بقوة في جسدي حتى ظننت أن الزمن ردَّني إلى أيام شبابي فتيًا أحتضن حبيبتـي.. لـم نشـعر ببلل مطر وملأنا دفء العشـق ونحن علـى عتبة أبواب مطـار، سـتفرق بنا إحـدى طائراته.. تلاعبنـي الذكريات فتطفو على سـطح مقلتيَّ الدموع ذاتها التي ذرفتها، وأنا أراها في التاكسـي من جديد عائدة إلى مدينتها.

أظن أن نانسـي لاحظت تعالي أنفاسـي والحزن الـذي تملكني فأرداني صامتًا، فقامت من جديد تربت على كتفي ناشـدة سـكينتي.. هدأتني فبدأت مخيلتي من جديد تنشغل بلندن وتاكسيها؛ هذه المرة كانت ماجدة ونور في صحبتي.

- لماذا لم يأتِ معنا؟

سارعت نور مبررة:

- استيقظ مبكرًا فنزل من الفندق يتمشى. سيقابلنا هناك في الموعد... لم يشأ أن يوترني بقلقه..

كانت نور تتوسطنا وماجدة تتمتم بآيات قرآنية وأدعية، فما كان مني إلا أن أخذت يد ابنتي بين كفيّ مكتفيا بذلك في نقل كل ما بخلدي من مشاعر قلق وحب نحوها. أظن أن عناق يدينا منحها طمأنينة أبلغ من أي كلمات. حين أنزلنا السائق عند مقصدنا، كان واقفًا هناك يفترس سيجارة بشراهة وعلامات توتره تستقبلنا. العنوان بالضبط في منتصف شارع الأطباء الأنيق هارلي ستريت. كانت ثالث أو رابع زيارة لي للشارع، الذي أصبح بعد ذلك عنوانًا لكثير من أحداث حياتي. ورغم بغضي لهذا الشارع وما يحمله من ذكريات، إلا أنه يلتصق بذهني بنظافة ناصعة وابتسامة مبشرة تستقبلنا بها موظفات العيادات، بغض النظر عن سوء الأخبار التي تتلو بشاشة ترحابهم.

- البروفيسور في انتظاركم.

دخلنا إلى أبرع أطباء النساء والولادة في العالم كما قيل لنا، مستبشرين بابتسامة سكرتيرته. جلسنا أمامه وهو منهمك في قراءة ملف معنون باسم نور كاملًا، وتحته على استحياء وبخط أصغر مكتوب اسم زوجها.

- للأسف نحن أمام حالة يصاب بها حوالي عشرين بالمائة من الأزواج.

أظننا كلنا لم نسمع ما قاله بعد كلمة «للأسف».

سكت النابغة قليلًا ثم عاود:

- عُقم غير مفسر.

ردَّت ماجدة عنا كلنا:

- ماذا؟

- الحالة اسمها عقم غير مفسر.. أظن الاسم شارح لطبيعته. جميع الاختبارات التي أجريتموها هنا وفي الأماكن الأخرى التي زرتموها سواء هنا أو في مصر، تشير إلى أنكما طبيعيان تمامًا، وأنكما قادران على الإنجاب، ولكن لأسباب غير مفسرة علميًّا لا تستطيعان الإنجاب... أو لا تستطيعان الإنجاب معًا بمعنى أدق.

سكت برهة ثم عاد من جديد:

- دعوني أعدْ شرح ما قلت.. هناك عدة أسباب علمية قد تكون السبب، ولكن ليس بقدرتنا القطع بأيها المتسبب في الحالة، وبهذا لا علاج بيدنا نعطيه لكم فيحدث الإخصاب ومن ثَمَّ الحمل. قد تكون أسبابًا جينية؛ هل توجد أي قرابة بينكما؟

بصوت ضعيف، ردت نور:

- لا

- كما تعلمون، فقد حاولنا الإخصاب عن طريق الأنابيب ولكننا فشلنا أيضا ثلاث مرات متتالية. وأظن أن هناك أملًا في هذه الطريقة الحديثة مع تطورها وتحكمنا أكثر في نتائجها في السنين القادمة. أقول هذا رَغْمَ أنه عليّ أن أحذركما بأن هذا ليس طبعًا بمضمون ولا أكيد. أرجو ألا تزعجكم

صراحتي ولكن الأمانة العلمية تستوجب أن أشرح لكم كل الاحتمالات.

تـلا كلماته صمت غير مريح للجميع، بما فيهم البروفيسـور الذى اعتاد تلك المواقف. أظنه اختار أن ينهي المقابلة حين بادرنا بقوله:

- لعلكم تفكرون في التبني...

أذكر تبرمه وامتعاضه، وهو يتعجب من اقتراح الطبيب:

- تبني؟!

ثم لا أنسى حين سارع بتركنا بعد خروجنا من العيادة قائلًا:

- أستأذنكم... محتاج أكون وحدي... سأراكم في الفندق..

6

أراه فـي دهاليز الذاكرة مطموس الملامح رغم أنـه نقش أفعاله بدماغي بأزميل نذالته.. أتذكره يعطينا ظهره خارج عيادة الطبيب، ويبدأ مشوار البعد عنا. تستمر ماجدة في احتضان نور تهدئها، وإن لـم تقدر على منع أثر حنقها عليـه مـن غـزو وجهها. اسـتطاع مـن يريحني نسـيان اسـمه، أن يحصد كل ما بماجدة من غضب.

في حجرتنا بالفندق، لم تتوقف دموع نور أو ماجدة بعد أن أنهى الطبيب ما كان تبقى لديهما من أمل في حلم، عاشتا تخططان ليوم حدوثه.. لم أجد لـديّ كلامًا كثيرًا يقال أو يفيد، ووجدت ملاذي في زيارات متقطعة للحمام أكفكـف هنـاك دموع حسـرة علـى انكسـار ابنتي، وأنـا العاجـز عن صرف بؤسها. لم يكن هو قد ظهر بعد؛ وكان بغض زوجتي له في أوجه، فصاحت بي منفعلة:

- معقول ما يفعل؟!

- ماذا؟

ردت كأن «نور» ليست بجوارها:

- يتركنا ويتركها في هذه الظروف!!..

- الموقف صعب عليه هو أيضًا، من المؤكد أنه يعاني الحزن نفسه.

- الحزن نفسه! هل هذا يعني ألا يقف بجوارها.

استمر النقاش بيننا طويلًا لا يبغي أن يستقر.. حيرني منطق زوجتي عندما قررت أن موضوع عدم الإنجاب يخص المرأة في المقام الأول، وأن دور الرجل فيه ثانوي.. أزعجني تجاهلها أحاسيس ذكورية كامنة داخل كل رجل، تكللها رؤيته لبذرته تترعرع أمام عينيه. وحين يشبوا يتمنى أن يستكملوا أو لعلهم يحققوا كثيرًا من أحلام هربت من قبضته. كثيرًا ما تتجاهل المرأة رغبات الرجل الأنانية، التي لا ترضي إلا لأبنائه أن يصيبوا ما عجز هو عنه.. أبنائه لا بناته، دائمًا يتمحور حولهم الأمل في شرقنا مكتفين للبنت بتحقيق حلم أمها الدائم بحفل عرسها.. ذلك الحلم الذي تبدأ تفاصيله مع صرخة خروجها من الرحم، وعند تحققه يحل محله رجاء ودعوة أن تجعلها جدة بأسرع ما في المستطاع.

أطالت ماجدة شرحها فيما يخص ضعف الأنثى، وأن سبب وجودها على الأرض فقط - دون غيره من الأسباب - أن تكون وعاء توالد للبشر.. أصبح في غاية التعجب من تلك الذكورية الجامحة التي غلبت رؤياها، فقد زادتني كل كلمة قالتها يقينًا بأن جذور ظلم المرأة أخصبت أراضيها امرأة أخرى.. امرأة أرادت أن تبرر قبولها لضيم أو أن تجمل ظلمًا ارتضته فتحرك اللاشعور عندها مدافعًا باستماتة عما فرضت التقاليد والأعراف عليهن قبوله. ولكن هذه هي الإنسانية التي قررنا أنها لفظة «مديح»، وإن جردناها ونظرنا إليها مغلفة بتاريخها، وجدناها هجاءً وقدحًا قبيحًا.

استوقفتني نانسي مستعجبة:

- هجاء؟! وقدح؟!

تَعجب نانسي جعل هاتفًا طالما أرَّقني، يبدأ في العصف بعقلي من جديد:

- نعم يا نانسي لمَ تستغربين؟ كيف ترين تاريخ الإنسانية؟ أليس كله مذابح واحدة تلو الأخرى؟

- ولكننا نتطور ونرتقي؛ ألا تظن ذلك؟

- أصبح ارتقاؤنا فقط في كيفية تبرير الدماء التي نسفكها.. تطورنا هذا جعلنا متقبلين أسباب أكثر حداثة لقتل غيرنا..

- تتحدث وكأننا في غابة..

- أو لسنا في غابة؟ أتدرين ما قمة غباء وذكاء البشر في آنٍ واحد؟ أقول لك: تتمثل قمة غبائهم في أنهم يقرأون التاريخ جيدًا فيختارون أن يكرروه بحذافيره دون تغيير؛ معطلين ذكاءهم، باختيارهم،عن محاولة تفادي أسباب الدمار أو لعلهم يؤثرون راحة تفادي التغيير، فيستمرون على درب ما اعتاده واستساغه من سطَّروا تاريخ البشرية.

أصبح بي شيء من الثورة فشعرت بأنني أصرخ بما في داخلي:

- الإنسانية فعل فاضح؛ شر مستطير آثرنا أن نجعله وصفًا جميلًا، رغم غلبة المقزز في كل ما نأتيه من أفعال؛ إذ تسمح لنا إنسانيتنا أن نذبح ونقتل بل ونحرق بشرًا آخرين، كان كل ذنبهم حين تدين لنا القوة، أنهم على غير

عنصرنا أو طائفتنا؛ كأن مجرد اختلافهم يحل دماءهم.. ودون تورع أو تردد من القاتل، الذي في الأغلب يصوره دراويشه بطلًا من الأبطال..

طوال مناقشتي مع ماجدة تلك الليلة، كان سامي هاجسًا مسيطرًا على فكري لا يفارقني، وأكاد أصرخ فيها:

- لم يكن هذا موقفك من ابنك!

كلمات تلغرافه كانت مطبوعة على أحد جدران عقلي بوضوح:

«أبي العزيز

أنا في مشكلة لا أستطيع شرحها في تلغراف أو مكالمة؛ فأرجو منك أن ترسل لي تذكرة عودة إلى القاهرة لأعرض عليك ما أنا فيه، وتساعدني على الحل.

ابنك

سامي»

أبي العزيز! لعلها المرة الأولى والوحيدة التي وصفني بها بنوع من العاطفة. المرة الوحيدة التي عبر بها عن مشاعر إيجابية نحوي أظنه اختار دومًا أن يحتفظ بها لنفسه، ثم عمّقت عيشته غربًا عدم الحاجة لتبادلها.. حين عاد أدركت لماذا قرر أن يستغيث تلغرافيًا، وهو الذي كنا نكلمه تليفونيًا يومًا بعد الآخر أثناء غربته الدراسية.

***

عجيبة ذكرياتي تلك، تأخذني حيثما تريد دون استئذان إلى يوم آخر، خف فيه القلب من وطأة ازدياد السعادة. في غرفة فندق لندن نفسها أو غرفة مشابهة بكل تفصيلاتها تجمع ثلاثتنا، ماجدة ونور وأنا.. هذه المرة بابتسامات لا تفارقنا، ونحن نستعد للنزول في أبهى ثيابنا وقمة فخارنا. كنا في طريقنا إلى جامعة لندن حيث سبقنا سامي؛ ليتقدم حفل تخرج الحاصلين على درجة الدكتوراه في الطب من تلك الجامعة العريقة.

ضيوف الحفل جلسوا في حديقة الجامعة، وقودهم مزيج قوي من التباهي والتماهي والافتخار بما أنجزه أبناؤهم ليصلوا إلى هذا اليوم.. وأنا جالس في انتظار بدء المراسم، تذكرت يوم أبلغني سامي برغبته:

- سأدرس الطب..

- طب؟؟؟؟؟ ومن سيتولى أعمالنا وشركاتنا؟

رغبة واختيار سامي عادة ما يُسجد بسببها شكرًا شرقًا، وتفتح من أجلها زجاجات الشمبانيا غربًا.. ولكن كلماته لي كانت معولًا يحطم - حلمي ومبتغاي - بقسوة حلمًا ومبتغًى شخصيًا.. كان حُلمًا محمومًا مشهده الأهم، أنني أقوم من على مقعد مكتبي وأدعوه ليحتل مكاني ويستحوذ على مكانتي.. طالما ارتأيتني جالسًا أمامه أزوره فيما كان مكتبي، قبل أن أفرح باحتلاله له. وكم من مرة غمرتني غبطة، وأنا أتصوره يستكمل بناء ما قضيت عمري أُشيده. ولكنه الوحيد الذي لم تستطع قدراتي التفاوضية يومًا أن تثنيه عن عزمه؛ لم يكن بصدد أخذ رأيي أو استطلاع نصيحتي؛ فقط كان يخطرني.

كان وسـيمًا وهـو يختال تيهًا حين نودي اسـمه؛ ليتقدم لتسـلُّم شـهادته، التـي اسـتحقها متفوقًا على كل دفعته.. روبه الأكاديمـي ولمعة عينيه في تلك اللحظة أحدثتا قشعريرة بجسدي وهرولت دمعة فرح سارعت بمسحها.. من وسط افتخاري، بدأت الأحزان تتسلل لتذكرني بأن ذلك الطبيب ذا المستقبل الباهـر لـن يكون يومًا صاحـب الأعمال التي بدأتها.. لـن يأخذ الصرح الذي شـيدته ويزيـد مـن عظمتـه ويضاعف مـن قيمته، ويضيـف إليه مـا يعضد من أسـس الإمبراطورية، التي كانت تنتظره أميرها. ألتفتُ يمينًا لتحتل نور نظري فيواسـيني تفوقها منـذ بدأت العمل معـي وكيف قدرت علـى جميع مهامها. اقتدارها وتميزها في مجال الأعمال كان مذهلًا. لم تسـتكن يومًا أو تسـتكف بكونهـا ابنتـي. موهبتها في مجـالات أشـغالنا كانت فطرية فأخـذت تطورها وتزيدهـا، وعلـى دربها في تحقيق النجاحات المتواليـة لا تكف عن إبهاري. ولكنهـا مع خالـص وتمام حبي لها لم تكن سـامي؛ كانت نـور ابنتي، والابنة لـم يكن من صميـم أدوارها تولي الأعمال. في مخيلتـي، كان مطلوبًا منها أن تتمتـع بما أفعـل لا أن تؤديه عني.. وكان مطلوبًا مني أن أدللها بشـتى السـبل لا أن تبارينـي وتتفوق عليَّ. وفي بعض الأحيان لم أرد لها أن تكون مسـؤولة عن شـركات، بقدر ما رغبت في أن تسـتمتع ببعثرة أموال تكفي وتفيض عدة أجيـال.. كان كل المطلـوب منهـا أن تكون أنثى مدللة كمـا يملي علينا كتاب ذكوريتنـا الشـرقية.. كانـت المشـكلة كلهـا تكمن فـي كونها «نور» وليسـت «سامي»!

***

- لا أتذكرك في هذا الحفل يا نانسي! لماذا لم تحضريه؟

لم ترد نانسي.. ولكنني سرعان ما انتبهت لسبب عدم حضورها، فأجبت بدلًا عنها:

- بسبب المشكلة..

انتبهت نانسي لأدرك أنني تماديت في اختبار صبرها، وأنه قد آن الأوان أن أسرد عليها مشكلة أبيها حينذاك:

- المشكلة يا حبيبتي لم تكن إلا أنت!

تلك المرة لم أخبر ماجدة بموضوع عودة سامي ولا ميعادها، ولم أقابله في المطار، بل فضلت أن أرسل له السائق، وأنتظر وصوله للمنزل حتى أجنبه الحاجة إلى أن يحكي مشكلته مرتين. كنت متأكدا أنها لابد أن تكون من النوع العويص لمعرفتي بشخصيته، التي قلما تئن. فرحة أمه بوصوله لم تستمر سريعًا، حين اختار أن يلقي في جعبتنا المشكلة التي أتى من أجلها. لم يكن وجهه وجه الشاب ذى الاثنين والعشرين عامًا، بل أحسست يومها أنه يحمل قلقًا لا يوافق خضرة سنينه:

- ليزا حامل مني..

- ليزا من؟

- صديقتي الإنجليزية..

كان الرد البدهي:

- تزوجها..

ردت السيدة التي من الشرق:

- يتزوج عاهرة؟!

ذهلت من تصنيف ماجدة لمن لم ترها من قبل، ولاحظت انزعاج سامي من تساؤل أمه:

- ليست عاهرة يا أمي. موضوع الزواج له شقَّان يا أبي أولهما أنني لم أكن أخطط لأن أتزوج في هذه المرحلة؛ لأن أولوياتي حاليًا إنهاء دراستي، ثم بدء ممارستي لفترة، قبل أي ارتباطات أخرى.. والشق الآخر أن ليزا نفسها لا تريد الزواج..

انبسطت أسارير ماجدة:

- إذًا لا توجد مشكلة!!

- كيف لا توجد مشكلة؟! ماذا عن الذي في رحمها؟

- هي لا تريد الزواج؛ ألم تسمع ماقاله سامي. تتخلص منه، الموضوع عادي عندهم.

الأريحية التي كانت فيها ماجدة جعلت النقاش يسير في اتجاه واحد لا مفر منه، مادامت هي موجودة. وأظن أن «سامي» أيضًا لم يكن معجبًا بما رمت إليه، فلزم كلانا الصمت. بالنسبة لماجدة، لم تجد مشكلة ولم تجد في نفسها لائمة تلقيها على ابنها الذي طالما تباهت بتربيتها له. وفي لحظات تصدرت عواطف أمومتها المشهد، فتناست أي أخلاقيات كانت تظن أنها غرستها فيه، وتفرغت للبحث عن حل لمشكلة ابنها فقط بما يحقق له دون غيره ما لا يعيق خططه. أدركت مرة أخرى لماذا يعشق أبناؤنا أمهاتهم.. إنهم يعشقون انحيازهم لهم وتفضيل مصلحتهم على أي اعتبارات. أظن أن الأم - في العموم - مستعدة وجاهزة لأن تتحمل جرم ابنها دون تدبر - ولو

للحظة – بتبريرات تجافي المنطق إن احتاجت. وفي المقابل، يستمتع الابن بهذه العاطفة غير المشروطة ويضعها في مكانة وحدها، لا تجرؤ إلا معتوهة أن تطالبه بأن يرقيها إلى المكانة نفسها.

– عارفة نظرية الملوخية يا نانسي؟

لم تملك الشقية إلا قهقهة مكتومة ردًّا عليّ..

– أقول لك على نظريتي في الملوخية: أعلى تكريم يعطيه الابن في مصر لأمه هو هذا الموضوع. لن تسمعي واحدًا منهم يقول إلا: «لا مثيل لملوخية أمي حتى لو كانت أمه لم تخرطها يومًا». وحين ترحل الأم وتحضره ذكراها، يعلن بمحبة شديدة أن ملوخية أمه التي لا مثيل لها قد أوحشته.

علت القهقهة هذه المرة، فأكدت لها بجدية:

– صدقيني.. هذا أعلى وسام من الرجل المصري لأمه..

ثم عدت أقول ضاحكًا:

– ولكن لا تنخدعي ففي معظم الأحيان لا يكون تصريح الابن العنتري مرتبطًا بذائقته فقط، فهناك ارتباط وثيق وموازٍ نابع من خوف متأصل دفين من إثر تعرضه لمقذوفات الأم المصرية تجاهه عبر سنوات ترعرعه!

أعجبني انجذاب نانسي إلى حديثي، فعاجلتها بجزء آخر من إرهاصاتي، التي طالما احتفظت بها لنفسي:

– استمعي إليَّ ولا تعتبريني عجوزًا يخرف: أرى السِّباب في مصر أيضًا من علامات تقديرنا لأمهاتنا. فكري فيها: ما الغرض من السباب والشتم؟

إن أجمـل مراحـل الحديث حين تسـتحوذ علـى انتباه المسـتمع إليك، ونانسـي كانت مستسلمة تمامًا لما كنت أسـرده.. عقلها النضر الباحث كان من أكثر ما أحب فيها؛ فمعها كنت أسـتطيع أن أدلف إلى أي موضوع وأبلغ فيه شـطـطًا دون أن أوصـم بأنني عجوز خرف. اسـتفضت في شرح ما تسبب في رسم الدهشة على وجهها:

- الغرض يا حبيبتي من الشـتم هو جرح أو إهانة من تسـبين، مضبوط؟ إذًا أبلـغ الجـراح تكون في إصابة الغالي لا الرخيص، ولهذا السـبب يسـب المصريون الأم والدين لأنهما أغلى ما يملكون. بينما تجدين الشوام يسبون الأخت؛ لأن شـرف الأخت هو ما يشـبون محافظين عليـه ويبذلون الأنفس مـن أجلـه تاريخيًا على الأقـل. أما عندكم في الغرب يا أسـتاذة ولأن الذاتية متغلبـة ولأن الأواصـر العائلية وهنت، غدا السـباب شـخصيًّا في الأغلب، موجهًا بالدرجة الأولى للمشتوم؛ لأن هذا ما سيعمِّق جرحه.

لـم تتمالـك نانسـي نفسـها، فصفقـت مـن بيـن ضحكاتها، التـي علت فانتشيت متباهيًا:

- ما رأيك في نظريات جدك الفريدة؟

صاحت مجلجلة:

- ممتـازة! ولكـن كفى تعذيبًا لي، واحك لي عـن بقية زيارة أبي لك من أجل «المشكلة»..

- لم تكن للزيارة بقية في القاهرة، وإن كانت لها نهاية في لندن.

صممت أن أسـافر مع سـامي لمقابلة تلـك الفتاة المتهـورة التي تحجَّر مخهـا، ورفـض أي حلـول عقلانيـة للموقف الـذي وضعـا نَفْسَـيْهِما فِيه..

أجبرتـه علـى التخلي عن رعونتـه وتصميمه على أن وقـت ارتباطه لم يحن بعد. أصررت على تلقينه أن الرجولة تحتم عليه أن يفعل الصحيح، ويتحمل تبعات أفعاله حتى لو على غير رغبة منه.

تعمـدت أن يكـون لقائـي بها في مـكان ثري؛ حتـى تعلم جيـدًا إلى من تتحدث.. حين دخلت ليزا ذلك اليوم بصحبة سامي إلى مقهى الريتز الشهير، التفتت دون شـك بعض الرؤوس تتملى جمالها. جلسـت أمامي تلك الفتاة النضـرة، التـي تنضح إنجليزيتهـا، فتحيطها بألفة لم أملك معهـا إلا أن أميل إليها وأواري تحفزي الذي اسـتعددت به للقائها. بنت العشـرين الإنجليزية الجامحـة، التـي كانت على وشـك التخرج من كلية حقـوق كنجز كوليدج، جلسـت أمامي وابتسـمت لتدخل في الموضوع دون مقدمات جهزتها، قبل اللقاء، عقلية الشرقي:

- سامي شرح لي أنك هنا لتقنعني أن أتزوجه.

قالتها بابتسامة، لم أميز إن كانت ساخرة أو مرحبة:

- صحيح؛ دعيني أسألك أولًا لماذا ترفضين الزواج منه؟ ألا تحبينه؟

- أحبه؟ لا! معجبة به وأرتاح إليه نعم... وبالتأكيد.

- ولكنكم في موقف لا يحله إلا زواجكم..

- أي موقف تقصد؟

- حملك؟

- ولماذا يحتم حملي زواجنا؟

- حتى يصلح الخطأ الذي وقعتم فيه؟

صدمتني المباشرة في ردها:

- خطأ؟ أي خطأ؟ لقد مارسنا الحب ونحن نعلم تماما كبالغين نتائج ما نفعل.. إن قانون التاج البريطاني يُعرفنا على أننا بالغون موافقون أو متوافقون فلا جرم فيما اقترفناه..

- ولكنكم ستنجبون خارج الإطار الشرعي؛ خارج منظومة الزواج..

- منظومة الزواج وضعية من فعل البشر، قد يرى البعض أنها غير ملزمة لهم.

- أليس من مصلحة طفلكم أن يأتي إلى العالم فيجد له أبًا وأمًّا ينتظرانه؟

- ومن قال إنه لن يجد ذلك.. سأكون موجودة وسامي أيضًا إن أراد أن يكون جزءًا من حياته. ألم تسمع من قبل عن اثنين تزوجا ثم تطلقا وهي حامل؟

- الوضع هنا مختلف!!

- ما الاختلاف؟ فلتعتبر أننا انفصلنا.. اسمع سيدي بحكم دراستي للقانون، فقد قرأت وقدمت أبحاثًا عن شرائعكم. وأستطيع أن أقول لك إنني وسامي حققنا كل شروط الزواج الموجودة بها.. كنا نعيش مع بعضنا البعض، وجميع معارفنا وأصدقائنا كانوا على علم بطبيعة علاقتنا. نقصنا فقط أن نذهب لنحرر وثيقة رسمية تختار الحكومات أن تعلن بها زواجنا. قل لي: فيما قبل مكاتب توثيق الزواج، هل كانت كل الزيجات غير شرعية في نظرك؟

استمرت ليزا في عنادها أو لعلي أقول في قناعاتها:

- المبدأ في الزواج عندي هو أن يكون عن حب ورغبة في الارتباط، الأمر ليس كذلك بيني وبين سامي، وقد يأتي اليوم الذي نصل فيه إلى ذلك، ولكن على الأقل فيما يخصني، فأنا لم أصل بعد إلى هذه الدرجة بعد. وتتبقى إذًا وضعية الطفل القادم؛ وأنا من أنصار الحياة فلا أتصور أبدًا أن أتخلص من الجنين لأنه - في نهاية الأمر - هبة من الله.

سكتت أمك يا نانسي، ثم باغتتني:

- لماذا تستغرب قولي الله؟ أنا مؤمنة بوجوده، وبأنه الخالق وأعبده جيدًا على طريقتي ومنهجي. أقول لك، ولسامي الحق في أن تنسبا الطفل لكما، وإن لم تريدا ذلك فلا بأس؛ فإذا انتسب إليكما، فاعلم أنه على الأقل في بلادي والتي ستكون بلاد الطفل أيضًا، ستكون له كل حقوق الطفل ابن الزواج.

- لماذا لا تطرحون الطفل للتبني.. هذا حل وسط، وأظنه دارج في بلادك. هكذا سيجد من يربونه، وفي الوقت نفسه، لن يعيق حياتكم وأنتم بعد شباب..

- حل وسط بدلًا من ماذا؟! بدلًا من أن تربيه أمه؟! ظننتك ذكيًا كما حكى لي عنك سامي!!

لم أعلق على استهزائها لأنها كانت على حق، ولكنني كنت قد يأست من محايلتها.. ندمت على اقتراح لم أكن مؤمنًا به وأغضبني اندفاعي في

عرضه. يأس لحظي جعلني اقترح ما لم أعني، ولا أرغب فيه. طوال نقاشي مع ليزا، كنت أنتظر اللحظة المناسبة، التي أستطيع فيها أن أضيف إلى الحسبة أرقامًا نقدية، تغريها بإما أن تتزوج سامي أو تتخلص منك فنقفل هذا الفصل ونمسح آثاره. ولكن أمك لم تكن - لا من قريب ولا من بعيد - تلك الفتاة التي من الممكن أن تفاوض على معتقداتها. حجتها ومنطقها لم يكونا صلدين فحسب، بل كانا غير منفذين لأي إغراءات.. أظن أن هاجسي الأكبر صرح عن نفسه، دون تعمد مني:

- سيكون طفلًا غير شرعي في بلادنا يا ليزا..

- أنتم أقدر على حل مشكلات بلادكم..

أتذكر صمت أمك يا نانسي قبل أن تلمع عيناها بفكرة:

- أقول لك: من أجل المظاهر التي تعشقونها، سأكذب أن سئلت وأشهد أنني وسامي تطلقنا بعد أن تزوجنا سرًّا... أيرضيك هذا الحل؟

علت ضحكة ليزا مع إلقائها قنبلتها الكاشفة على مسامعي؛ الضحكة نفسها التي ورثتيها عنها يا نانسي.. لم تكوني أيَّ مشكلة بل كنت عارًّا، رفضت أمك أي وسيلة طُرحت لطمسه.

7

أحسست بها تهزني برفق، وهي تخاطبني:

- نمت على هذا المقعد طوال الليل يا حبيبي؟

ثم مدت يدها نحوي:

- هيا.. قم وتنشَّط، فلدينا يوم طويل أمامنا..

أخذت نور يدي وسلمتها للواقفة بجانبها، التي بدأت تقودني نحو السلم.. أظن أن التياعي ولوعتي تبديا بوضوح على وجهي، فعاد صوت نور يطمئنني:

- اذهب مع كارلا لتغير ملابسك... سأجهز وأنتظرك هنا... هيا لا تتأخر عليّ.

استمررت في المشي خلف من تقودني بخطوات قصيرة متباطئة، حتى وصلنا إلى بداية السلم، فالتفتُّ خلفي، وبصوت متردد، سألت نور:

- نانسي؟

تلعثمت نور قليلًا ولاحظت قليلًا من الدهشة على وجهها، قبل أن تشرع في الرد عليّ:

- تجهز نفسها هي الأخرى... لا تقلق، ستقابلنا هناك.

تدور بنا دورة الحياة، فتبدو وكأنها تختار أن تعيد البدايات حين نظن أننا نشارف النهايات.. كلما طال بنا العمر، اقتربنا من تلك النقطة التي تتطابق فيها النهاية مع البداية.. الأسعد حظًّا هم من يغادرون دنيانا قبل أن تغادرهم ذكرياتهم ومكنوناتهم وقدراتهم، التي إن غابت لا يختلف معها العجوز عن الرضيع إلا في قدرة غالبًا محدودة في الوقوف على قدميه. تواردت تلك الأفكار عليَّ وأنا عار بين يدي كارلا وهي تحممني. لم تكن لديَّ ذكريات، وأنا بين يدي أمي رضيعًا، ولكنني استعدت مشاهد من طفولة نور وسامي، وماجدة تبللهم فيها بالماء كعادتها مساء كل يوم قبل نومهم..

أظن أن وضعي الحالي لا يختلف كثيرًا عما لابد وأن شعروا به؛ فممرضتي - كما أمهم - تديرني من جهة إلى أخرى، وهي تتأكد أن الماء فاتر قبل أن تضعه على جسدي، قبل ملامسة كل جزء مني جيدًا بالإسفنجة والصابون. تغلبني حسرة وأنا مستسلم ليديها، بأن لا قدرة لي على إعمال إرادتي. تمامًا كرضيع يقلبونه يمينًا ويسارًا، فيما يظنونه فيه مصلحته، دون الحاجة إلى سؤاله؛ إذ إنهم واثقون من أنهم أدري..

يحيرني سؤال عن عدد الأعوام التي راحت تضاف إلى عمري، ولا تضاف في مقابلها حياة، وتلك الأعوام التي جرت وتكالبت، وكان وقودها حياة تملأها. تعود كارلا بالمنشفة، تلفني بها وتقودني نحو غرفتي، وهي تمسك يدي بحزم، فيراودني خاطر أردت أن أسألها إياه، ولكنني آثرت كتمانه: «هل كان حلمك، وأنت شابة أن ترعي العواجيز من عينتي»؟ أجيب عن خاطري بخبث: «وهل من الممكن أن يكون هذا حلمًا؟ إن هذا لابد أن يكون واقعًا

ومفروضـا علـى مـن يقوم به تمامًـا مثل أغلبيـة الوظائف التي يقوم بها بشـر، لا علاقـة لهـا بأحلام تصـوروا يومًا أنهم سـيحققونها، إن أصـروا عليها. قلة قليلـة منا فقط هـي التي تصيب أحلامها، وأغلبية تلـك القلة القليلة لا تتحقق أحلامهـا أو رغباتهـا كاملة، بل تتحقق أجزاء منهـا يرتضيها لهـم القدر. وحتي هـؤلاء الناجحيـن فـي إصابة أجزاء مما شـرعوا فـي تحقيقـه، يعتمدون علي قدرات ذاكرتهم على حذف مقاطع الأحلام التي فشلوا في الوصول إليها.

حيـن تنتهـي كارلا من إلباسـي الثيـاب، تأخذني مـن يدي إلـى المقعد المجاور لسـريري وتجلسـني فيه برفق، وهي تمد يدها بالنوتة السوداء، بعد أن رأتني أطيل النظر صوبها:

- اقرأ فيها حتى أعود إليك لننزل معًا..

تغـادر الغرفـة، فأجد نفسـي أفتح النوتة التي بيدي وأشـخص فيهـا. في أول صفحـة تتشـابه الحروف المتراصـة بجانب بعضهـا البعض، فلا أسـتطيع تمييز مكتوب أو مقصود. أشعر بعجز مخي عن استيعاب السطور التي أدقق فيها. أعيد النظر مرة تلو الأخرى، فلا يحدث جديد، ثم أفاجأ بومضة تضيء رأسي، يشتعل معهـا ذهني فتبـدأ الأحرف في التشـكل والانفصال والاتصـال؛ لتصبح كلمات تتسابق وتلاحق الأخرى؛ فتستحيل جملًا ذات معانٍ ومقاطع مترابطة.

« أبي الحبيب

لقـد نصحك طبيبك الدكتور ريتشاردسـون بأن تحتفظ بهذه النوتة، وأن تـدون بهـا كل ما تسـتطيع، بدءًا من يوم تشـخيصك.. وطلبـت أنت مني أن أكتـب لـك مقدمتهـا تفصيلًا، وبالتحديد عن يوم لقائـك بالطبيب في لندن. وعندما فكرت فيما سأكتب، أدركت أن عليّ أن أبدأ قبل لندن بقليل.

بـدأت ألاحظ عليك كثرة نسـيانك، وأنـت من كان ذا ذاكـرة حادة على الدوام لا تفوته التفصيلة الصغيرة.. في البداية، عزوت ذلك إلى ظروف كنا نمر بها كعائلة، وضغوط تعرضت أنت لها.. عزوت نسيانك إلى كونه جزءًا من ضريبة تقدمك في السـن، فتعاملت مع وضعك على أنه طبيعي. لم أجد داعيًا لقلق أو أن هناك ما يسـتدعي استشـارة الأطباء.. كنت أعلم جيدًا أنك لا تطيق زيارتهم، وأنك غالبا سـترفض أي اقتراح مـن هذا القبيل.. ولكنني استشـعرت أن الأمر جدّي يوم أصر الأسـتاذ مجدي مدير الحسـابات على مقابلتي. كان أمرًا غير عادي.

- لا مؤاخذة يا نور هانم، ولكن هناك موضوعًا أحتاج أن أحكيه لك.

- تفضل يا أستاذ مجدي.. دون إطالة من فضلك..

- الباشا طلب مني أن أحضر الشيك نفسه ثلاث مرات اليوم.

- وما في ذلك.. حَضره.. نفذ أوامره!

- يا هانم الباشـا وقع هذا الشـيك بالأمس... وفي كل مرة أذكِّره بذلك، ينظـر لي وكأنـي أفاجأه بالخبر... ثـم يصرفني ويعود بعدهـا بقليل؛ ليطلب إصدار الشيك نفسه من جديد.

أصارحـك بأننـي فزعـت يومها، خاصـة حيـن دخلت عليـك مكتبك، فوجدت نظرتك زائغة، وأحسسـت أنك تعاني نوعًا من التخبط؛ إذ بادرتني لحظة رأيتني:

- لِمَ نحن في الشركة يوم الجمعة؟

اتصلت على الفور بسامي، ورويت له ما حدث وأحوالك عمومًا في الفترة السابقة. في عُجالة، قام سامي بالحجز مع الدكتور ريتشاردسون الذي قال عنه إنه أفضل أخصائيي طب نفس الشيخوخة في إنجلترا، وعندما ناقشتك في أمر رؤيتك لطبيب بخصوص ما تمر به، لم أجد منك معارضة. لا أخفي عليك يا أبي أنني رغم ارتياحي لموافقتك على الذهاب لريتشاردسون، أصابتني مسحة حزن لاستسلامك هكذا دون مقاومة، فقد تعودتك قويًّا صلدًا معاندًا، فيما يخص صحتك.. حزنت أن أراك ضعيفًا مستسلمًا، وإن ارتحت إلى أننا سنستشير الأفضل، ونجد علاجًا لما أصابك.

تكررت زياراتنا لعيادة ريتشاردسون في لندن كلينك يوميًّا على مدار أسبوع، ولكني سأكتفي هنا بآخر لقاءاتنا معه.. بعد أن جلسنا أمامه، تفحص الطبيب، في صمت الأشعة المقطعية وأشعة الرنين المغناطيسي والتحاليل، التي كنا قد أجريناها، منذ وصولنا إلى لندن. ومن بعد ذلك، بدأ ريتشاردسون في توجيه أسئلته إليك، بدءًا من اسمك وسنك فأجبته، ثم توالت أسئلته متنوعة، وفي كل اتجاه عن قصد منه فيما أظن. حين سألك عما إذا كنت قد تعرضت لحوادث أو إصابات في رأسك سارعت بالنفي، وحذرتني نظرتك صوبي وقتها أن أتدخل. استفسر الطبيب بتدقيق كثير عن نومك، وأكدت أنت له أنك تنام دون انقطاع ليلًا، بالإضافة إلى ساعة عصرًا. كل هذا، وهو يدون إجاباتك في ملفك الذي فرده أمامك..

استعجبت حين استفسر الطبيب منك إن كنت مكتئبًا، وابتسمت حين أجبته بتهكم أنك لو كنت تعرف أنك مكتئب لبحثت عن علاج. لم يكن حوارًا بين طبيب ومريضه، بل أقرب إلى سجالٍ بين شخصين شديدي

الـذكاء. بعد أن انتهى الطبيب من المعتاد، شـرع في مجموعة أخرى متنوعة مـن الاسـئلة، منهـا أن يطلـب منك العد عكسـيًّا أو تسـمية أشـهر الخريف وما شـابه ذلك، وجـاءت إجاباتك بارتياح دون تـردد. طلب منك أن تكتب جملة تصف فيها لندن، واذكر أنك كتبت:

«لندن مدينة جميلة لا يعيبها إلا ضبابها».

في بداية الجلسـة، كان قد لقنك جملة بالإنجليزية وطلب منك تذكرها، وشـرح لك أنه سـيطلب منـك إعادتها بعد حيـن. بعد أن كتبـت جملتك في وصـف لنـدن، أخـرج الطبيـب مجموعة مـن الكـروت، عليها صور أشـياء مختلفـة، وبدأ يعرضها عليك طالبا أن تصفها له، وقد أجدت ذلك ثم فاجأك بتوقفـه عن عرض هذه الصـور، وطلب منك أن تعيد الجملـة التي لقنها لك عنـد البدء. تباطأت في الـرد عليه، وترددت طويلًا قبل أن تحاول أن تعيدها، ثـم نظـرت إليه في خجـل وأخبرته بأنـك لا تتذكرها. طلب منـك أن تحاول مـن جديـد، وبدا عليك القلق عندما فشـلت لثاني مرة. سـيطر عليك التلعثم وما لبـث أن تحـول إلى ضجر من كثرة ما سـأل، وعدت إلـى عادتك في أن تكون من يقود ويوجه دفة الحديث، فوجدتك تباشره بشيء من الحدة:

- ما الموضوع يا دكتور، نسيان عادي؟

تمهل الطبيب في الرد، ونظر نحوك برهة قبل أن يلقي بقنبلته: أعلنك أنه ليس نسـيانًا عاديًّا من واقع التحاليل والأشـعة والاختبارات التي أجريناها. أخبرنـا أنـك فـي الأغلـب مريـض بالديمنتيـا. أخبرنـا أن هنـاك كثيـرًا مـن الأشـكال والمسـببات لهذا المرض، وأن أكثر أسـباب الديمنتيا شـيوعًا هو مرض ألزهايمر، وأنه وحده يسهم في حدوث أغلب الحالات. وقد أسهب

الطبيب في إخبارنا بأنه لا يمكن التمييز قطعيًّا بين مختلف أشكال الديمنتيا، وأنه يمكن للمرء أن يصاب بمزيج منها في آن واحد، كما شرح لنا أنها حالة تقدميـة وانتكاسـية بمعنى أن لا علاج لها، ولا يمكـن للمريض أن يعود إلى الحالة الطبيعية أو يشفى منها وإنما يستمر في التدهور.

كتـب لـك بعـض الأدويـة، أكثرها في طـور التجريـب، وأغلبهـا يعمل علـى إبطـاء التدهور وتنشـيط المتبقي مـن ذاكرتك. كان آسـفًا وهو يخبرك بـأن أعراضك ستسـوء مع الوقت، وأن كل مانسـتطيع أن نأملـه هو أن نطيل زمن احتفاظك بقدراتك وأن هذا مرض عضوي ونفسي في آنٍ واحد؛ إذ إن خلايا المخ تضمر وقتيًّا إلى أن تنتهي تمامًا، وأنك ستفقد ذاكرتك مع الوقت كما أن سرعة فقدانك لها تختلف من حالة إلى أخرى.

أشـار الطيب إلى أنك - غالبًا - سـتحتفظ لمدة أطول بذاكرتك البعيدة، في حين ستروح منك ذاكرتك القريبة ومعها قدرتك على الأفعال الاعتيادية بمعـدل أسـرع.. أعتـرف البروفيسـور بأن مـا قالـه كان قاسـيًا، ولكنه يؤمن بـأن جزء من العلاج هو مجابهة حقيقة ما أصابنا؛ حتى نسـتطيع الاسـتعداد والتخطيط لما هو قادم، ثم أراد أن يخفف عليك، أو - على حد تعبيره - أن يطمئنك، بأن المرضى يعيشون طويلًا رغم تشخيصهم بهذه الحالة. وختامًا أظنه أراد أن يعطيك بصيصًا من الأمل - ولو بعيد المنال - بأن هناك احتمالًا ضعيفًا لاكتشاف علاج في المستقبل القريب.

وأنـا أقرأ ما سـطرته نور، توقفت عند ما نقلته عـن الطبيب، وهو يحاول أن يطمئنني:

«أن المرضى يعيشون طويلًا رغم تشخيصهم بهذه الحالة».

أظـن أن ردة فعلي وأنا أمامه، تكررت في ذهني، وأنا أقرأ تشـخيصه من جديد:

- أي طمأنينة في العيش دون ذاكرة!

اسـترجعت مـا أدركته يومهـا أن ترجمة مـا قصده ريتشاردسـون أن من تصيبهـم أعراضي يعيشـون عبثًا أو عبئًا على الأحيـاء. تعجبت عن أي حياة يبشـرني بها الطبيب!! والروح ستتسـرب مني رويدًا رويـدًا، دون مقدرة لي على الاستمساك بها.

توقفت عن اسـتكمال ما تبقـى من كلمات نور.. توقفت وقد اسـتعدت نفس شعوري يوم سمعت حكم عدم الصلاحية الذي أصدره ريتشاردسون؛ حكم إعـدام مع توصية بالتنفيذ البطيء. تملكني الشـعور ذاته الذي غلبني، وأنا جالس أمامه يومها: شعور بخواء داخلي وفراغ تام.. شعور جسد غادرته روحه فأردته بلا ذريعة للوجود. تذكرت فقط أسـفي؛ لأني استجبت لطلب سـامي ونور بأن أزور الطبيب، ففي حالتـي كان الجهل بالقادم نعمة لا نظير لها.. احترت إن كانت المعرفة نقمة، أم أن الداء الذي أصابني سيداويها.

* * *

لم أحزن ولم أتأسَّ على حالي يومها ولا حتى اليوم، حين قرأت ما دونته نور. وجدت بداخلي شـيئًا من القوة من أثر الخواء الذي تملكني، استطعت بهـا تقليب صفحات النوتة حتى منتصفها تقريبًا. هذه المرة تعرفت بسـهولة على خطى الذي سُطرت به الصفحة التي توقفت عندها:

« اليـوم دار بيني وبين سـامي حديث، أظنه تأخر سـنين طويلة، فقد كان كل منا بحاجة إلى إجابات وتوضيحات من الآخر.

- بعض الأمور تحتاج إلى إغلاق... إلى مسببات ودوافع، وأنا لديّ أسئلة لم أسألها حتى الآن، وأريد أن أعرف أسبابك قبل..

- قبل أن تنمحي ذاكرتي؟ قلها ياسامي، فلن يوقفك شيء..

ببروده المعتاد، استمر سامي في الاستجواب الذي شرع فيه، ولم يثنه تحسري على حالي الذي تملك صوتي:

- لماذا أعدت نانسي إلى ليزا دون الرجوع إليَّ؟

- لأن ذلك كان التصرف السليم..

- التصرف السليم من وجهة نظرك أنت، ولكنه كان تدخلًا فيما لا شأن لك به... نانسي تخصني وحدي!

- ولكنك جعلتني طرفًا!!

- كل ما طلبته منك وقتها كان لفترة وجيزة..

- دعني أسألك أنا: هل مازلت تظن أنك كنت على حق؟ بل لعلي أسألك: ما الذي دفعك لذلك؛ إن ما أقدمت عليه لا يتفق مع تركيبتك. ألا تذكر ارتياحك لعدم رغبة ليزا في الزواج؟

- للأسف أنت لا تعرفني ولا تعرف تركيبتي... حين حملت ليزا فعلًا ارتحت حين رفضت الارتباط؛ وقتها كان تفكيري أنانيًّا، ولم أكن أريد أن أغير مخططاتي الدقيقة لمستقبلي.

- ثم؟! ماذا تغير؟

- ثم أدركت أني أحبها..

- نانسي؟

- نانسي طبعًا فهي ابنتي، ولكنني أدركت أني أحب ليزا وأريدها..

- ولماذا لم تصارحها بذلك وتتزوجها؟

- حاولت مرارًا ولكنها على عكس ما أرادت أن تظهر.. كانت مجروحة من عدم إصراري على الزواج منها بداية الأمر؛ إذ قالت لي إنها مضت بحياتها، وأن صفحتي قد انطوت..

- فأردت معاقبتها بأن تأخذ منها البنت..

- أردت أن أثنيها عن رفضها لي.. ظننت أني أستطيع أن أقنعها بأن نصبح عائلة، نواتها نانسي..

- ألا تظن أن هذا تفكير شديد الالتواء؟

- كالعادة، قلبت سؤالي إلى تحقيق وملامة... لم ترد عليّ: لِمَ فعلت ما فعلت؟ لِمَ تدخلت في شأني؟ هل استأهل حرماني من نانسي ما قمت به؟

- رددت عليك بأني فعلت ما ارتأيته صحيحًا، لا لمصلحة نانسي فقط بل لمصلحتك أنت أيضًا..

- دائمًا ظننت أنك أدرى بمصلحتي مني... دائمًا اغتررت بأنك العليم بالأصلح لكل من حولك... نور وأمي وأنا!... لا أحد يعرف الصحيح إلا أنت!!

سكت سامي لحظات ليعاجلني بعدها:

- وبعد أن جرى ما جرى، أمازلت ترى أن ما فعلته كان صحيحًا؟

مثلما أصابت ذهني تلك الومضة التي أضاءته؛ فجعلتني قادرًا على ربط الحروف وفهم المكتوب، استحال الظلام في رأسي وكأن غيبوبة أصابتني، فتفككت الأحرف من جديد وغدت طلاسم، لا قدرة لي على فك شفرتها. أشخص في النوتة، فلا أرى إلا أشكالًا متنافرة متراصة بجانب بعضها لا أميز منها شيئًا.

حين بدأ ذهني يصفو من جديد، وجدتني وقد جلست في سيارة فارهة رابضة أمام قصر منيف، وصوت محركها الدائر به هدوء لا يتناسب مع فخامة حجمها.. تعجبت من أن «نور» اختارت أن تجلس بجانب السائق لا إلى جواري. لم تكد السيارة تتحرك، حتى صاحت نور:

- توقف... نسيت ورقًا مهمًا... لحظة وأعود..

ما أن غادرت نور السيارة حتى التفت إليّ السائق قائلًا:

- ما رأيك في هدية عيد ميلادي؟

نظرت إليه، دون أن أفهم عما يتكلم..

- هذه السيارة أهدتها إليَّ نور بمناسبة عيد ميلادي..

ثم قرقع ضاحكًا:

- أحلى شيء أن أستمتع بأموالك، ولا تملك أنت اعتراضًا..

من بين قهقهاته، لمعت عيناه وغمز لي، وهو يقول:

- أو لعل الأحلى أنَّني حرمتك من آخر أسباب سعادتك!

ابتسامته السمجة ونظرته غير المريحة نحوي استثارتا جزءًا كان مستكينًا في رأسي. من داخل ذهني، بدأت تتشكل أحداث مرتبطة بوجهه، أو بالأحرى بتلك الابتسامة البغيضة التي تعلوه.. وجدتني أرى نفسي، وأنا ارفع سماعة الهاتف وسمعتني أقول:

- كيف الأحوال يا باشا؟ أريد منك خدمة..

صمت الصوت الذي برأسي قليلًا، وكأني أتذكر ردًّ من أُحدثه قبل أن أسمع صوتي مرة أخرى:

- لا أبدًا؛ ولد محتاج تأديب!!

8

بدأت السيارة تتحرك بنا، وأنا أستغرب كل ما أراه من نافذتها.. لم تكن هناك أي ألفة بي للمباني، التي نتحرك بينها في الشارع العريض المزين بأشجاره، ولم أكن قادرًا على معرفة أين أنا. من على جدران ذهني، قفزت كلمتان منحوتتان طالما سببتا لي قلقًا. كالعادة، رنت الكلمتان في رأسي بصوت سامي:

- تلال الأكاسيا..

حاولت أن أخرس الصوت المُلِحّ في جنبات رأسي، فوضعت يديَّ على أذنيَّ، أغطيهما، ولكن هيهات فقد ظل الصدى يملأ جمجمتي مكررًا برتابة:

- تلال الأكاسيا..

تملكني الفزع أن تكون تلك وجهتنا، فانكمشت في مقعدي وسرت بجسدي برودة مصحوبة برعشة، تملكت يديَّ لا أستطيع لها إيقافًا.. أحسست بدموعي تبلل وجنتيَّ، وتسارع نبضي، وأنا أتخيل ما هم آخذوني إليه.. أظن أن نحنحتي وصلتها؛ إذ لفَّت جذعها من على المقعد الأمامي، ونظرت إليَّ بشفقة متسائلة:

- ما بك يا حبيبي؟

نظرت إليها ونبست خوفي:

- تلال الأكاسيا؟!

مدت يدها تربت عليَّ بحنو شديد، وجاءني صوتها نافيًا:

- لا يا أبي.. لن نذهب هناك.. لا اليوم ولا أي يوم.. لا تقلق..

اطمأننت لصوتها ولكلماتها، فتبخر الفزع الذي انتابني وإن ظللت منكمشًا مكاني وذهني خاليًا تمامًا من أي أفكار.. مازلت أنظر من النافذة لا أستطيع تمييزًا لمكان نمر به، وإن لاحظت أن السيارات المحيطة بنا، وكأنها تتوارى خجلًا كلما مررنا بجانبها. أدركت - وأنا الخبير - مقدار فخامة ما نركبه، وأكد ذلك تلك النظرة المخلوطة حسدًا وإعجابًا في أعين من يحيطون بنا في الشارع. لطالما عشقت السيارات أو بالأصح كانت هي عشقي الوحيد لجماد أو هواية، أو ما يدمن الناس على هواه من غير البشر.

أصبحت السيارات دائمًا علامة تقدمي في عالم الأموال والأعمال؛ بدءًا من أول سيارة محلية الصنع، تذوب - دون تمييز في شوارع القاهرة - إلى موديلات شتى، بعضها يصعب على الأكثرية نطق اسمها لا مجرد الحلم بركوبها، مكنني منها ثراء بلا حدود أصبته. خيول عصري المسومة أو ألعاب الرجال الكبار كما يحلو للبعض وصفها، وفي خاطري، دائمًا علامات نجاحي وتقدمي. ومثل مربي الخيول الأصيلة، كان لديَّ إسطبل، لا أذكر عدد ما جمع من عربات وإن تباينوا ما بين أحدث الأنواع وكلاسيكياتها التي جبت العالم أجمعها وأجددها وأتمتع ببهائها.

ولكـن أثيرتـي لم تكن مـن فصيلة الخيـول، بل كانـت نمـرًا رابضًا يثير شـغفي ويطفئ ظمأ عشقي.. الجاجوار الذهبية ذات البابين، التي وقعت في غرامهـا في السـتينيات، وأنا أشـاهد بطل الفيلم الهوليـودي، يقودها صوب الأفق في مشـهد النهاية وبجواره حبيبته، والهواء يداعب خصلات شـعرها المتطايـر.. طـوال عمري، أسـير حـب النظرة الأولـى ولا أزهـد الوفاء له؛ فاسـتمرت الجاجوار عالقة بمخيلتي حتى ذلك اليوم الذي التقينا من جديد فـي معرض جينيف للسـيارات.. يومها كنت قادرًا علـى مهرها الغالي، فلم أفاوض عارضها في سعره المغالي فيه، فقد استحققته محبوبتي التي سرعان ما أصبحت زينة جراجي الضخم..

لم تكن مجرد درة في عقد مجموعتي، بل وحشًا أرقط يتقدم الصفوف، مجسـدًا حيـوان الجاجـوار الواثـب الـذي يزيـن مقدمتها. ولـم أكـن مجرد صاحبهـا أو سـائقها في أيام الأجازات، بل كنت مروضها الذي يسـتمع إلى زمجرة الأحصنة المتجمعة تحت غطاء موتورها، لا رغبة لها إلا الانطلاق. في كل مرة أدرتها، ارتفعت معدلات التستسرون بجسدي، ومع علو صوت محركها لامست مشاعر رجولتي سقفها. كان انطلاقي بها على الطريق دائمًا ترجمة لذوبان الخيل والخيّال في رحلة عشـق، لا يفسدها إلا انتهاء الرحلة وفراقنا.

تأخذني من تغزلي في الجاجوار، بناية على الطريق.. يسـتحوذ شـكلها علـى ذهني، فيعود بي إلى جاردن سـيتي وعماراتها.. تنشـط الذاكرة ما بين جـاردن سـيتي ولقائي بعد غياب بسـارة فـي لندن. لم يمر يـوم منذ عودتي، إلا وكان بيننـا حديـث مطـول أو أكثـر تليفونيًا تحكـي لي وأحكـي لها كل

تفصيلة في يومنا، نقلنا أحداث حياتنا صوتيًّا إلى بعضنا البعض فأصبحنا كمن لا يفارقون بعضهم لحظة. ثم جاءتني الفكرة واختمرت، فبدأت التنفيذ محتفظًا بالمفاجأة إلى وقت أن تكتمل أركانها، التى شكلت فيها مكالمة هاتفية ليست لسارة - هذه المرة - نقطة البدء:

- كيف الأحوال يا باشا؟ أريد منك خدمة..

أوهمنا القدر أننا نحارب الباشوات، ثم أصبح المستساغ أن نخلع على من نبجلهم لقب دون مسوغاته. فوجئنا بسخرية أن الباشوية والبكوية عقائد شعب راسخة، وأن اللقب باق مع اختلاف وجوه من نطلقه عليهم.

- تحت أمرك.. خير؟

- شقة مؤممة في عمارات التأمين في جاردن سيتي... تلزمني..

لم يتأخر الباشا في إعطاء تعليماته بالتنفيذ، فوقعت عقد إيجار غير محدد المدة، في ظرف أسبوع من طلبي. ويومها وقفت في وسط بهو شقة عائلة سارة، تموج بي ذكريات تبدأ من أول زيارة لي في جنح الليل لهم، حتى يوم أقفلت باب الشقة بيدي، عندما غادرت هي وأمها وأختها مصر كلها دون احتمالات العودة أو الرجوع.. بجانبي وقف ديمتريادس اليوناني العجوز، أشهر منسق ديكور في مصر، كما نصحوني.. كانت تعليماتي بسيطة وواضحة:

- شهران وتكون جاهزة ومفروشة على مستوى باشوات الخمسينيات... مفهوم؟

استفزني ردُّه، فعنفته:

- التكلفة ليست مشكلة..

لم يخذلني ديمتريادس وأثبت أن سمعته الطيبة في محلها؛ فقبل شهرين كنت أقف مستمتعًا بالتحول الذي أحدثه بالشقة، التي غدت - عن حق - جزءًا من بلاط ملكي، لا بيت باشوات. النشوة التي أصابتني جعلتني أقدم سفرية نيويورك التي كنت أزمع القيام بها، وأبلغت سارة أني سألقاها في لندن في طريق عودتي. كانت نيويورك رحلة عمل ولكنها كانت أيضًا مهمة في استكمال مفاجأة سارة؛ ولم أكن لأترك جزئية من خططي دون الكمال.

فرملة مفاجئة أعادتني من نيويورك إلى زحام الطريق الذي كنا نسلكه. إن تقييم السائق الحقيقي لا يكمن في تحكمه في سيارته مسرعًا، وإنما في طريقة كبحه جماحها. تماما كالبشر، أغلبهم لا بأس بهم والحياة تجري دون أحداث جسام، ويظهر معدنهم الحقيقي لحظة احتياجهم إلى تحكم في مشاعرهم. وكما في حياتي، كنت كذلك في قيادتي دائمًا متفوقًا في التحكم وكبح جماح خيولي ونموري، وبالذات مُهرتي المفضلة التي ضربت لها موعدًا ثابتًا في الجمعة الأولى من كل شهر، ننفرد فيه ببعضنا وأستمتع بها دون شريك.

حين هممت أخرج في ميعاد لقائي بالجاجوار الذهبية، استغربت أن ماجدة كانت في كامل زينتها، في تلك الساعة المبكرة من هذه الجمعة:

- خذني معك..

بدا ترددي أن تشاركني خلوتي المفضلة، ولكنها ابتسمت:

- دعنا ننطلق.. لن أزعجك.. لن تشعر بوجودي.. وعد..

ركبنا السيارة وأدرتها وكعادتها أمتعتني بزمجرة موتورها عندما أدرت مفتاح التشغيل، وكأنها تعترض على إزعاجي لها وإخراجها من حالة استرخاء اعتادتها. ضغطت بقدمي على دوَّاسات السرعة، ونحن مازلنا وقوفًا لأستمتع بضجيج الأحصنة الميكانيكية، تناشدني فك أسرها من تحت غطاء موتورها.. مددت يدي وضغطت الزر الذي أزاح بتؤدة سقفها الجلدي؛ لتسقط أشعة الشمس الربيعية المترددة بخجل على وجهي أنا وماجدة. داعبت بيدي عصا نقل السرعات، قبل أن أمسكها بحزم لأنقلها إلى وضع التحرك ومعها. وبحساسية رجل يداعب امرأته، لامست دواسة البنزين لتبدأ بنا الرحلة. كانت يداي تتحسسان مقود الخشب الأبنوس في خفة المحب لحبيبته؛ ألفها يمينًا ويسارًا كما يملي عليّ الطريق، ولكن برقة تستسيغها تلك النمرة التي ارتضت ترويضي لها. مع تزايد ضغطي على دواسة السرعة، ازداد أثر تلاطم النسيم المنعش لوجوهنا. أنظر بجانب عينيَّ، فأجد رفيقتي منتشية والابتسامة الواسعة تزين وجهها. يغلب تعقلها فرحتها بانطلاقتنا فتصرخ ضاحكة:

- كبرنا على هذا!

أدرك الغنج الذي بها فأرد:

- الشباب في القلب..

تمد يدها لتمسك يدي فأستجيب ثوانيًا قبل أن أسحبها إلى حيث يجب أن تكون ممسكة بعصا السرعات. شعر رفيقتي يتطاير مع ضربات الهواء، فأمتلئ خيالًا أن من بجانبي هي من يجب أن تكون: سارة.. أتصور شعرها القاني يلامس كتفي ويديّ تمتد بهدوء لتحتضن كفها، والجاجوار تقضم وتلتهم

الأسفلت وترمي خلفنا ما طويناه من الطريق.. كم ملكني شعرها الأحمر طوال حياتي وتحكم فيَّ جماله واسترساله. عشقته ملمومًا أو مسترسلًا قصيرًا وطويلًا أو في أي وضع اختارته. أظن أن حمرته أسرتني وقادتني إلى حب النظرة الأولى، الذي استمر مشتعلًا بجوانحي عبر السنين.

توقف جديد دون إنذار، استعادني للنظر من نافذة السيارة لأجدنا وسط غابة إسمنتية، يتباين فيها القبح والجمال في آنٍ واحد.. عمارات شاهقة تحيط بنا، بعضها اختار بناؤها أن يحسن زينتها وأغلبها تركها مشيدوها دميمةً بلا روح وبخلوا عليها أن يكون لها وجه من الأساس. تشدني تفاصيل عمارة جميلة بعيدًا إلى نيويورك الثمانينيات، وقت كانت مانهاتن العنوان الأوحد لناطحات سحاب كوكبنا.

كُللت لقاءاتي واجتماعاتي في نيويورك بنجاح، وتُوجت بصفقة غدت نقلة جديدة في عالم النجاح ومفتاحًا آخر لأموال متدفقة. عندما دعاني شركائي الجدد للغذاء احتفاءً بما أبرمناه من عقود، سارعت بالاعتذار أن لديَّ ارتباطات أخرى. حين غادرت مبناهم الضخم، اتجهت من فوري إلى الشارع الخامس الذي أجلت زيارته ليكون آخر محطات رحلتي الأمريكية. طويت المسافة إلى مقصدي في دقائق؛ لأجد أن ما تخيلته متقزمًا أمام الأبهة الحقيقية لدكان أشهر صائغ في العالم: تيفاني.

على رصيفه، جذبتني نوافذ عرضه الشهيرة التي وقفت أمامها من قبلي أودري هيبورن في فيلمها الشهير، الذي استعار اسمه من اسم تيفاني الأشهر.. لوحات فنية منسقة بعناية، يتزاوج فيها ما غلا من المجوهرات وإبداعات فنية جذورها من عوالم، لا علاقة لها بالمصوغات التي تحتضنها.

تتلألأ مجوهراتهم على بهاء خلفيات استلهموها من روائع الفنون الإنسانية المختلفة. فوق مدخله المهيب، وقف أطلس الإله الإغريقي برونزيًّا يحمل في يسر ساعة دقيقة الصنع، علامة على أنني وصلت إلى محطتي. حين دخلت، أحاطتني الفخامة والأبهة المتسقة مع معروضات المحل.. توقفت برهة يجول نظري بما اهتموا أن يكون لافتًا دون ضجة مصطنعة، وبكثير من الأناقة، التي تتسلل إلى الوجدان في هدوء؛ لتدحض سمعة التصقت بأمريكا أنها دون تقاليد أو أصالة.

انتشلتني من حالة الانبهار أنيقة من بائعات تيفاني في زيها الرسمي، بلونه الشهير، اللون الذي قرر أن يهرب اسمه من ذهني، كلما حاولت استدعاءه:

- كيف أستطيع معاونتك اليوم؟

لم أتردد فيما أتيت من أجله هذا اليوم:

- خاتم ماسي... أبحث عن خاتم الماس..

- خاتم خطوبة؟

مع إيجابي بأن هذا ما أبغيه، قادتني الجميلة إلى حيث مجموعة المحل الشهيرة من خواتم الخطوبة. بدأت في عرض الواحد تلو الآخر، وهي تحاول أن تقيس قدرتي المالية من ردود فعلي على الأحجام المختلفة للأحجار التي تتوج كل خاتم تريني إياه. البهاء والجمال كانا عنوان كل خاتم أراه، ولكن لم يأسرني أي منهم حتى تلك اللحظة التي قررت هي أن تبهرني بقطعة مختلفة. حين مدت يدها بذلك الخاتم، قفز قلبي من مكانه وأنا أتصور سارة تلبسه.. توسطته ياقوتة حمراء مستديرة، تحتفي بها دائرتان من الألماس الصغير، يحتضنان شفافية الحجر الأحمر القابع وسطهما في

جـلال ملكي. رأيت وجه سـارة فـي مرآة تلك الياقوتة، التي اسـتعارت لون شـعرها رداءً يتناغم مع بشـرتها الرقيقة. لم أسـأل عن سعر فقد اشتراني هذا الخاتـم، بـل لعله ملكني فلم أبال، وأنا أدفع ما قـد يكون جزءًا غير قليل من أرباح الصفقة، التي كنت قد أبرمتها قبل وصولي إلى محل تيفاني.

طـوال رحلة الطائرة من نيويـورك إلى لندن، ظللت أخـرج علبة الخاتم الصغيرة أطيل النظر إليها ثم أعيدها بعناية إلى جيبي دقائق، قبل أن أخرجها مـن جديـد. أتخيله يزيـن أصابعها أو بالأحـرى، أرى أصابعها تبـرز جماله ورونقـه.. حين اسـتقبلتني سـارة في مطـار هيثرو، طلبت منهـا أن نتجه إلى المطعـم، الذي اختارته لعشـائنا من فورها. اقترحـت أن أذهـب إلى الفندق لأسـتريح قليلًا، ولكننـي أبيت فقد كان بداخلي فوران واسـتثارة، تحضاني على البدء فورًا في الوصول إلى مرادي.

فـي المطعـم، وبعد أن طلبنا الطعـام مددت يدي إلـى جيبي، فأخرجت مظـروف الصـور الذي كنت أحملـه وقدمته لها.. فتحته وبـدأت تتطلع إلى مـا فيه صـورة تلو الأخـرى.. اغرورقت عيناها بالدمـوع، وهي تتعرف على أركان ما شـبت فيه بيتًا لعائلتها؛ نظرت إليّ، وقد اختلطت الدموع بابتسـامة شوق إلى ما كان:

- بيت أبي!

- بيتك يا سارة استعدته لك وجهزته لتقيمي فيه..

اندهشت:

- أقيم فيه؟

سـؤالها دفـع بيدي إلى جيبي مـن جديد، هذه المرة؛ لأخـرج علبة تيفاني الصغيـرة. حانت لحظة طلبـي منها، ما أصبح حلمـي أن توافق عليه. بصوت جسّد كل ما أشعر به نحوها، صحبته نظرة مملوءة عشقًا قدمت بها التماسي:

- تزوجيني يا سارة..!

لـم أدر إن كان صمتهـا الذي تبع سـؤالي نتيجة دهشـة أخذتها، أم نتيجة تـردد ارتابها أم تـأنٍ اختارت أن تلوذ بـه. ظلت تتنقل بعينيها مـا بين الخاتم ووجهـي وارتبكـت تقاطيعها بانفعال مختلط، لم أسـتطع قراءته، ثم قطعت الصمت غير المريح:

- وزوجتك؟

- أنتِ من أريد زوجة... أنتِ من حلمت وتمنيت أن تكوني لي..

- الحلـم شـيء والواقع شـيء آخر.. واقعـك به عائلة لا أريـد أن أكون هادمتها..

- سأكون لك وحدك..

- أحبك... لكن لا أريد أن تكون سعادتي على حساب تعاسة أحد..

- لـن أكـذب عليـك... سـأحتاج إلـى بعـض الوقـت، ثم سـأكون لك وحدك.. ثم إن طلبي مشروع..

* * *

مرة أخرى ولكن بقسوة، يدوس سائق السيارة ذو الابتسامة السمجة على فراملهـا، وهو يحاول تفادي عابـر مفاجئ للطريق.. التوقف المفاجئ أطلق

الضبابيــة في أركان رأســي ليســتعمرها الخواء من جديد. من وســط الإبهام الــذي حــل بي، تبدأ الجاجــوار في الظهــور على اســتحياء، وأراني وماجدة مازلنا مستمتعين بنزهتنا، والنسيم يلاطم وجهينا، فتملأني أحاسيس انتعاش أوحشــتني. كانت فســحة الجمعة قد أوشــكت على الانتهاء وغدت وجهتنا صوب منزلنا؛ لأعيد فرستي إلى مركنها بالجراج. أطلقت لها عنان السرعة؛ لتركــض بأقصــى ما فيها من قوة، وتبث في عروقي أحاســيس الفارس الذي يسوس كل هذا الجموح بتمكُّنٍ.

فــي المرآة، ظهرت لي ســيارة حديثة، كان ســائقها يقودهــا برعونة وهو يجتهد في تخطينا من يميننا.. بصبيانية، جاء ردي أن ضغطت دواسة السرعة حتى نهايتها لتلامس أرضية السيارة، ولكنه استمر يطاردنا حتى أنهك سيارته قبــل أن يحازينا، وهو ينظر إلينا نظــرة المنتصر، الذي نجح في ملاحقتنا. ثم كانــت تلك اللحظة؛ لحظــة لا وصف لها إلا أنها مريعة.. تراقصت ســيارته بعنف، وأخذت تميل بجنون، قبل أن تنقلب في اتجاهنا. وحاولت أن أُفاديه بكل ما أملك من خبرة ومهارة؛ لأجد نفسي أختبر إحساسًا جديدًا. إحساس طيــران وانقلاب، لفة ثــم أخرى ثم ثالثة تليها. علا صدى اصطدام المعادن، ثم صمت مثلما علا، ومعه عمت ظُلمة لا أدري كم طالت. وحين انقشعت تلــك الظلمة وجــدت إنني مازلت على مقعــد القيادة، ولكن لــم يكن هناك أحــد إلــى جانبي.. عالجت باب الســيارة المحطم، قبــل أن أترجل، وبدأت فــي معاينــة الســيارتين اللتين أصبحتــا أقرب إلــى كتلتي الخــردة. كانت بي آلام منتشــرة مــا بين ذراعي وفمي، الذي امتلأ بمــذاق الدم.. لم أكد أبدأ في

تفحص ما بي، إلا وعلا أنين، التفت إلى مصدره من وسط جلبة، الذين تجمعوا يمدون يد المساعدة.

على جانب الطريق، كانت هي مسجاة ودماؤها تسيل.. كان أنينها ما بين مناداة ومناجاة لي.. جريت عليها واحتضنتها وأنا أصيح:

- ماجدة! ماجدة!

* * *

مرة أخرى، انهمرت دموعي، وجعلت أتنحنح؛ فالتفتت إليّ نور من جديد.. تفاديت نظرتها ومددت يدي في جيبي، أتحسس ما حرصت على حمله.. سطع ذهني ضياءً بلون العلبة: التركواز.

9

هـل كان الفقـر البـادي على أغلب مـن يحتلون الأرصفة مـن حولنا هو الذي ذكرني بتلك النكتة التي طالما لخصت كثيرًا من فلسفة حياة الأثرياء:

«فقير كان يطوف في الحج داعيًا: يارب ألف دولار تحل كل مشكلاتي، فربـت الغنـي الـذي وراءه على كتفـه قائلًا: خـذ الألـف دولار، وابتعد كي أطلب الملايين العشر الزيادة التي أريدها».

استرعت ضحكتي انتباه الجالسين في مقاعد السيارة الأمامية.

- ألم يكن يبكي منذ لحظات؟!

- كم مرة يا طارق أشرح لك أن هذه من أعراض الديمنتيا!!

- لا أسـتطيع تصديـق موضـوع الديمنتيـا فيما يخـص أبـوكِ... إنه أمر لا يتوافق مع ذكائه وجبروته..

- يعني حالته التي تراها وتشخيص الأطباء غير مقنعَيْنِ لك!!

ثم عادت نور:

- الحالة تتدهور تمامًا كما وصفها لنا الدكتور ريشتاردسون والإخصائية التـي أحالتـا إليهـا: التغيـر اللحظي في المشـاعر مـن الفرحة للحـزن مثلًا، ونسيان لحظي لأحداث الحاضر، وتذكر تفصيلي دقيق للماضي في بعض الأحيان.

ديمنتيا؟ سمعت هذه الكلمة التي يرددونها في حديثهم من قبل.. سمعتها أو قرأت عنها. كم هو غريب أمر تلك الكلمات، التي لا تحمل لي معانٍ أسترجعها بدقة وأخرى أجتهد دون جدوى في استعادة طريقة نطقها. مازالت الكلمة ترن في رأسي، ثم بدأ وميض يتداخل مع رنينها فبدأت أتذكر ما قيل لي عنها:

ما نعرفه عن الديمنتيا هو من منظور التشخيص والرصد، ولكننا لا نعلم بالضبط أو تحديدًا ما يمر به المريض؛ لأنهم مع تقدم الأعراض لا يستطيعون طبعًا تسجيل حالاتهم أو ما يمرون به. هذا المرض تقدمي كما قال لك البروفيسور ريتشاردسون؛ بمعنى أن حدة الأعراض ستزداد مع الوقت، وما يمكن أن نسميه تدهورًا في الحالة، سيحدث بمعدل يختلف من مريض إلى آخر.

تكون بداية المرض بسبب جلطات صغيرة متتابعة في المخ، أو قد تكون بسبب جلطة كبيرة، تنتج عنها انسدادات في الشرايين، يبدأ معها عدم وصول الدم والأكسجين إلى مناطق في المخ، ويتبعها فقدان لأجزاء من الذاكرة، ومناطق المخ المرتبطة بالمعرفة واللغة أو التخاطب. رويدًا رويدًا، يبدأ المريض في التلعثم تخاطبًا وفكرًا، ومع تطور الحالة يكاد المريض أن يصل إلى حالة من الصمت المطبق.

مع انعزال المصاب بالديمنتيا تقل معلوماتنا عما يدور بأذهانهم؛ نعرف أنهم يفقدون قدرات معينة، مثل: كيفية تغيير ملابسهم أو غيرها، مما كان يسيرًا عليهم من الأفعال اليومية، ولكننا لا نستطيع الوصول لما بوعيهم أو ما يشعرون به، وإن كان أغلب ما نراه منهم ترجمة لما وصلوا إليه من وعي وإدراك.

المثال الأقرب لما يصيبهم، هو أنهم يعودون إلى الحالة التي نُولد عليها كبشـر لا ذاكرة لنا، ونبدأ في بنائها خطوة تلو أخرى، ومعها نتعلم مع تقدمنا فـي السـن ما نحتاج إلى فعله أو ما يجعلنا نعيـش حياة طبيعية، كما نحب أن نصفهـا. ولكن في الديمنتيا، لا مجال لتعويض ما نفقده فما يذهب لا يعود، وأهم نصيحة مع التشـخيص هـي أن يبدأ المريض في ترتيـب أموره المالية منها بالذات وما يخص أعماله وأموره الحياتية؛ فمن المهم جدًّا أخذ قراراته فيمـا يخـص مراحل، لن تكون له قـدرة فيها على اختيـار أو تحديد مصيره، والمفضل أن يوثق رغباته وأن يخطر بها المقربون منه.

أتتنـي هـذه المعلومات عن كلمـة ديمنتيا بصوت امـرأة رأيت ملامحها مطموسـة في ذهنـي، وهي تلبـس رداءً أبيض، وتجلس أمامـي على مكتبها فيما أظنه مستشـفى أو عيادة طبية شـديدة الأناقة والنظافة. استغربت اهتمام هذه الطبيبة فيما أظن، بهذا الشرح الوافي لي عن الديمنتيا.

من جلسـتي في مقعد السـيارة الخلفي، اسـترعى نظري مرآتها الداخلية التي احتلتها ابتسـامة سائقها السمجة.. تلك الابتسامة التى تعمدت تفاديها، فوقعت عيناي على جانب وجه نور، الذي أظنني وجدته يشع بهجة. سعادة نور البادية على وجهها وابتسامة السائق غير المستساغة طافا برأسي. لا أدري ما داس على زناد ذهني لأبدأ استعادة مشاهد جمعتهما، وإن اختفت سعادة نور فيما لملمته من ذكريات.

***

كنت أسـتعد للنوم أنا وماجدة حين سمعنا باب البيت يُفتح، وسرعان ما كانـت نور تقـف أمامنا. لم تنبس حرفًا، وجرت على أمها تدفس رأسـها في حضنهـا وهي منهارة بالبكاء.. دقائق طويلة ونحن نحاول أن نهدئها أو نفهم منها ماحدث، قبل أن تعتدل في جلستها لتواجهنا بالخبر المريع:

- تزوج عليّ!!

صرخت ماجدة:

- يا مصيبتي!!

تدخلت أنا:

- تقصدين يريد الزواج عليكِ؟

- لا يا أبي، لقد تزوج فعلًا... تزوج ولم ينكر حين واجهته..

- طلقيه.. اتركي هذا الكلب فورًا..

- رفض يا أمي..

ثم عادت بانكسار تقول:

- يقول إنه يحبني ولا يريد أن نفترق، وإنه لم يُجرم حين فعل ما هو شرعي..

نور في حضني رضيعة، وأنا أهدهدها هو حالي المفضل معها.. تجيئنا البنات منحًا وهدايا من السماء لنرعاها ونعزلها عن أي شرور تستهدفها، كما أنهم يقولون إن الأب أسير حب ابنته، و«نور» لم تأسرني يومًا بقدر ما ملكتني من أول ثانية، وقع نظري عليها. مع سامي، لم أجد حاجة إلى أن أتداخل أو أنصح إذ كنت فقط ممهدًا لطريقه. وللأمانة، لم يكن في طريقه حتى شب أي مطبات استدعت تدخلي.. أمه لامتني دومًا على أنني لم أربه وأنني اكتفيت بحرص ألا تعوزه ماديات، فأهملت مشاعر وأحاسيس كان بحاجة إليها ولا يمكن له أن يعوضها.

أمـا مع نور، فلم أكتف بالتسـيير، بـل صادقتها والتصقت بها.. أسـتمتع بـدور حامي حمـى الرقيقة المتأهب دائمًا للتدخل دونما حاجة لاسـتدعاء. وفـي المقابل مدتني هي بوريـد، ممتلئ لا ينقطع من الحنـان وهي صغيرة، وطورتـه لتصبـح سـندي ومـلاذي فـي إمبراطوريـة أعمالـي حيـن كبُرت، واحتلت مكانها تقود وتبدع وتوسـع دوائر أشـغالنا. طالما أعجبتني قدراتها القياديـة التي هنأت نفسـي أنهـا ورثتها منـي، وبهرتني بقوة إرادة وشـكيمة جعلت مَنْ شكُّوا فيها حين بدأت، لا يكنون لها إلا احترامًا لا علاقة له بأنها صاحبة المال.. حين رأيت هذه القوة وتلك الشـخصية منكسرة، لم تكن بي سوى ضغينة ونيران متقدة، لا تبغي غير انتقام.

- أريدك في مكتبي غدًا صباحًا..

الحزم الذي كلمته به لم يجعل له مخرجًا سوى الاستجابة، فوجدته في الميعاد المحدد - بالضبط - جالسًا أمامي:

- الخبر الذي قالته لي نور صحيح؟

- بخصوص؟!

- دعنا لا نلف ولا ندور؛ هل تزوجت عليها؟

- نعم، تزوجت..

ثم أضاف في تحدٍّ:

- ولكن أظن أن هذا موضوع يخصني أنا ونور..

- ما يخص «نور» يخصني... وأظنك تعرف ذلك، فلا داعي للسفسطة... ندخـل في الموضوع: مبروك عليك الزواج، ولكن كي تعيش مرتاحًا، فأنت بحاجة إلى أن تستكمل ما شرعت فيه بطلاق نور.

- طلبت نور ذلك؟

- قلت لك نور تخصني، وأنا الان آمرك بذلك..

- تأمر فيما يخصك... لا أوامر لك عليّ... لن أُطلق!!

لم أعتد أن ترفض طلباتي أو أوامري؛ فقد كان كل من يحيطون بي يستجيبون لما أنشد بلا مناقشة. تحديه لي أجَّج النار التي بداخلي اشتعالا راودني للحظة هاجس أن أنهض من مقعدي إلى حيث جلس، فأصفعه صفعة تناسب دناءته.. لم أكن أعلم أن ما استفزني منه لا يعدو إلا أن يكون ريم السفالة التي كان بصدد أن يكشف عنها.. أعملت كل ما بي من خبرة لأضبط نفسي وأهدأ كي أجد حلاًّ مع من أصبحت لا أطيق النظر إلى وجهه.

- اخترت مسارًا جديدًا لحياتك بالزيجة الثانية؛ ففيم تريد نور؟ طلِّقها!

- ولكنني أحبها والشرع يبيح ما أقدمت عليه!!

- الشرع يبيحه بشروط والقانون يحقق لنور طلبها إن عاندت..

- القانون؟ فعلًا؟ خذ طريق القانون إذًا، ودعنا نتقابل في المحاكم السنين القادمة!!

لم أسمح لغلياني الداخلي أن يجعلني أحتد عليه، فعدت أحاول أن أخاطبه بمنطق مختلف:

- إن كنت تحبها، فَلِمَ تزوجت عليها؟!

- لا أريد أن أضايقك أو أحرجك، ولكن نور ليست امرأة كاملة كما تعلم!!

لو كان بيدي مسدس لأرديته قتيلًا عقابًا بسيطًا لوصفه لنور بالنقصان.. أظن أن بقايا من خجل كانت لا تزال عالقة به جعلته يستطرد:

- أقصد طبعًا فيما يخص قدرتها على الإنجاب..

- كل من زرتم من الأطباء أجمعوا أن لا عيب فيها!!

- ولا عيب فيّ أيضًا ومن حقي إذًا أن يكون لي أطفال؛ أليس هذا هو غرض الزواج؟

- لو أن هذا غرض الزواج الوحيد في عُرفك، فلا مفاجأة فيما اقترفت... اسمع، لا وقت لديَّ لمحاضرتك عن المودة والرحمة، وماشابه، فلا أمل لديَّ فيك... دعني فقط أستخدم منطقك: أليس من حق نور هي الأخرى أن يكون لها أطفال؟ ثم إنك تقول إنك تحبها، فلماذا لا تطلق سراحها كي تجرب حظها أيضًا؟

- نور لن تكون لرجل غيري، نور ملكي أنا وحدي... ثم أي حظ تجربه؟ من سينظر إليها وهو يعرف أنها عقيم لم تستطع الإنجاب في زيجة أولى؟ ربما ينجذب إليها طامع في أموالها وأموالك، ولذلك فأنا أحميها من هؤلاء بالإبقاء عليها على ذمتي..

- ذمتك؟ هي ليست في حاجة إلى أمثالك... أنت تلعب بالنار بتحديك لي... سأجعل حياتك جحيمًا، وأنت تعرف أنني قادرٌ على ذلك..

أظن أن الشرر والشر اللذين سطعا بعينيَّ كانا كافيين بأن يوصلا إليه أنني أعني ما هددته به، فَلانَ صوته:

- اهدأ يا فندم؛ أنت من علمتني ألا أجعل الضيق يفقدني صفقة!!

- صفقة؟

- نعم صفقة... أعرض عليّ مقابل حرية نور!!

- مقابل؟!

- يا باشا أنت ملك الصفقات... قل لي يا عمي كم تساوي حرية نور، وسأقول لك إنْ كان عرضك يناسبني أم لا!

ذُهلت، وأنا الذي لا يذهله شيء من كثرة ما اختبرت وخنقتني كلمة «عمي» التي ناداني بها:

- ما هذا الهذيان؟ أمخمور أنت؟

- مليون... دولار!!

- ماذا؟ أجُننت؟

- من يوم أن عرفتك وأنت تتباهى بثمن توقيعك على صفقات... ثمن توقيعي على ورقة طلاق نور مليون دولار..

- أعرف حقارتك ولكنني أخطأت تقدير مقدارها.

- لم أسمعك معترضًا أو ممتعضًا يوم دفع صديقك المليونير خلو رجل لطليق زوجته الحالية؟ بل لعلك شجعته على ما فعل!! كم دفع وكم تقدر أنت «نور» في ضوء مادفعه صديق عمرك؟

ثم عاد ببرود قاتل، وبابتسامة تخجل السماجة أن تكون لها وصفًا:

- اهدأ وفكّر في عرضي... لا تجعل غضبك وسبك يرفع عليك السعر... وبين البائع والشاري يفتح الله يا باشا!!

لم تعد بي قدرة على تمالك أعصابي، فقمت صائحًا من مقعدي:

- صدقت ماجدة حين قالت عليك كلب.. أخرج.. والأيام بيننا... أيام قليلة... أيام قليلة...

لم أستطع أن أبوح لنور بما دار بيني وبينه؛ اكتفيت بوعدها بأن طلبها سيتم قريبًا وأنها ليست أسيرة إرادة غيرها.. الألم الذي كان يلفها قسا عليّ، وهي صغيرتي التي لا أستطيع أن أتحمل جرحها.. أمها طاردتني تريد أن أفضي لها بتفاصيل لقائي معه، ولكني راوغتها مخافة أن تسرد يومًا لنور ما قد يجعل جرحها غائرًا دون أمل التئام.. ليلة لم أنم فيها إذ تلاطمتني فيها أفكار وخطط للخلاص منه. أسهلها كان أن أدفع له ما أراد؛ ولكن صلفه وغروره ظلا يؤرقاني ويمليان عليّ عدم الانصياع؛ كَبُر في نفسي أن تكون صغيرتي موضع مقايضة، وجرحتني نظرته إليها بأنها غير كاملة.. حاولت أن أعزل أو أحيِّد غضبي، ففاوضت نفسي أن أقبل ما طلب، ولكن لم أقدر على غيظي، الذي أبى أن ينصاع لبخس ثمن الخلاص من دونية هذا الكائن.

حين وصلت مكتبي ذلك الصباح، قمت بالمكالمة التي احتجتها:

- كيف الأحوال يا باشا؟ أريد منك خدمة..

لما استفسر من أحدثه عن طلبي، لخصته له:

- لا، أبدًا، ولد محتاج تأديب!!

لم أترك تفصيلة إلا وأوضحتها للباشا؛ فلم أكن بصدد إعطائه درسًا بل انتقامًا وإذلالًا، ولم أنهِ المكالمة إلا على وعد بتنفيذ كل ما أردت.. حين أتموا المهمة لم يبخلوا عليّ بنقل دقائق ما حدث.. كانت البداية حين تلقى

مكالمة تحدد له ميعاد لقاء، وأخطروه بأن سيارتهم ستكون في انتظاره. وأنا أسمع سردهم، تخيلته حين ركب السيارة فوجدهم يعصبون عينيه؛ حتى لا يعرف الوجهة التي يأخذونه إليها. لم تفك العصابة من على عينيه إلا وهو واقف أمام من استدعاه:

- شرفتنا..

قالوا لي أنه كان باردًا رغم غموض ما كان يتعرض له:

- تحت أمرك يا فندم.. خير إن شاء الله..

- خير يا أستاذ... سمعنا بأنك تحب عقد الصفقات، فقلنا نعرض عليك واحدة..

- صفقات؟!

- نعم؛ وصلنا أنك تطلب مليون دولار من أجل أن توقع الصفقة الواحدة!!

حين سمع ذلك بدأت علامات القلق تستولي عليه، وتسرب الفزع إلى قسماته، رغم محاولاته أن يتمالك نفسه.

- لا أفهم.. ممكن حضرتك تشرح لي أكثر..

- اسمع.. أنت تعلم تمامًا عمَّا أتكلم.. لن أطيل عليك.. بصراحة أنت دخلت في معركة غير متكافئة على الإطلاق... نحن نعلم أن شابًّا مثلك قد يتصرف برعونة في بعض الحالات... ولكننا نعرف أيضًا أنه يجب أن يتخلى فورًا عن هذه الرعونة حين نشرح له تبعاتها.

تداعت حصون دفاعته سريعًا، كما وصفوا لي، فلم يطل في الحديث:

- ما المطلوب مني يا فندم؟

وقبل أن يرد عليه، طلب في ضعف:

- ممكن أجلس؟

- قبل أن تجلس، وقبل أن أقول لك المطلوب منك.. دعني أنبهك وأنصحك فيما هو قادم من حياتك: حين تختار خصمًا اختره من حجمك وعلى قدرك... قل لي بالله عليك، هل يستطيع ملاكم وزن الذبابة أن يصرع ملاكم الوزن الثقيل؟ ثم كيف فكرت؛ ألا تعرف أن لكمة واحدة من بطل وزن الثقيل قد تكون مميتة؟

في علم النفس، يكون لتوقيت الكلام تأثير مباشر على ردة فعل متلقيه؛ وحين تريد أن تضخم رعب من أمامك، عليك أن تسكت قليلًا وتزيح نظرك عنه بلا اهتمام، ثم تداعب مخاوفه بما يمكن أن يصيبه في مقتل:

- والله حماك رجل محترم جدًّا... تصور أنه رفض تمامًا أن نستخدم لا ملفاتك ولا ملفات والدك.. وغضب جدًّا حين اقترحنا أن نجر أختك في الموضوع..

عند هذه النقطة من الحديث، خذلته قدماه فكاد يسقط من وقفته، فتركه محدثه قليلًا إمعانًا في تغلغل الفزع إلى أعماقه، ثم دعاه أن يجلس. وهم يعيدون تفاصيل المشهد عليّ، غلبهم الضحك على حاله، ثم أقسموا أن المذلة التي كانت به كادت تجعله يبكي:

- اسمع، هذه المرة لن نؤذيك.. إننا نقدر أنك تصرفت بطيش شباب، دون وعي كامل لما تفعل... لكن تذكر أن السماح مرة واحدة فقط..

ثم فتح محدثه درجًا ورمى منه ورقة على المكتب:

- وقِّع قسيمة طلاقك من «نور» هانم يا أفندي!!

- ولكن...

- لكن ماذا؟ ستوقع على القسيمة ولن تحكي لأحد عن أي شيء.. فقط ستقول إنك عدت إلى عقلك وأنك تحترم وتقدر نور هانم، وتتمنى لها التوفيق في حياتها... ثم يا أخي أنت عريس جديد، فتمتع بزواجك. على فكرة أنت الآن تختار بين أن تعيش حياة هادئة، أو أن تحولها إلى كابوس.. أظنه اختيار سهل جدًّا... اعقل يا عريس ووقع!!

وقع الورقة باستكانة، فصرفه الباشا مذكرًا إياه:

- لو حكيت لأحد سنعرف!!

في مرآة السيارة، لم تعد تضايقني ابتسامة السائق السمجة وأنا أستعيد ضحكاتي الشريرة، يوم رفضت مقابلته، فترك مع سكرتيرتي قسيمة طلاق نور، وخرج كما وصفته لي مطأطئ الرأس صاغرًا ذليلًا..

لا أدري لِـمَ عادت إليَّ ذاكرتي، من جديد، نكتة الرجل الذي أعطى من يطوف أمامه الألف دولار:

- خذ الألف دولار، وابتعد كي أطلب الملايين العشرة الزيادة التي أريدها..

وعلت قهقهتي من جديد وأنا أسترجع ردّي على سؤال الباشا:

- لا، أبدًا، ولد محتاج تأديب!!

10

مدة غير قصيرة والسيارة تسير على مهل وسط زحام مرور المدينة، ولم تنجح رفاهيتها في أن تفُسح لها الطرقات. كلما لففت عنقي إلى الخلف، مجتهدًا في التعرف على ما نمر به أو محاولًا تمييزه، لاحظت تلك السيارة السوداء الضخمة تتبعنا ملتزمة بكل تغيير اتجاه نأخذه، في التصاق بدا مسببًا ومقصودًا.. لسبب لم أعلمه، ارتحت لوجودها خلفنا إذ ظللت ضخامتها علينا بنوع من الأمان ازداد مع ابتسامة سائقها، ومن جاوره نحوي في إحدى التفاتاتي. ظللنا نبطئ مع تزايد الازدحام حتى توقفنا تمامًا، ومع طول توقفنا رغم تحرُّك من أمامنا أدركت وصولنا إلى مقصدنا. علا دوي السيارات من خلفنا؛ اعتراضًا على تعطيلنا السير، وعلى إيقاع ضجيجه داهم مركبتنا ثلاثة رجال، مفتولو العضلات ببدلات داكنة ونظارات سوداء، يمدون أيديهم لفتح الأبواب.

لطالما استعجبت الدافع الذى يجعل الرجل يعرض جسده للإيجار؛ حماية لرجل آخر مهما كان المقابل. وفي كل مرة راودتني تلك الخاطرة، تبعتها في ذهني مقارنة شريرة تساوي الحراس والعاهرات اللواتي أراهن أوفر ذكاءً؛ إذ إن تجارتهن - في الأغلب - لا تعرضهن لموت عوضًا عما يتلقين من نقود، ثم أفكر مليًا في أول إنسان استعمل حرسًا أي سحر

استخدمه؛ ليقنع حرّاسه بأن حياته أهم وأغلى من حيواتهم وأي عشق ووله جعلهم يحيطون به، مقدمين أجسادهم بما تحوي من حياة فداءً له؟ أم أن العضلات الفتية التي لا يألون جهدًا في إبرازها والتباهي بها، تسحب من رصيد قدراتهم العقلية؛ فتجعلهم مضحين بأجسادهم؛ عوضًا عن حياة من يحرسونهم. من متع الثراء والسطوة أن يكون لدينا ترف التفكر ورفاهية التفلسف دون حاجة إلى تغيير موازٍ لما يثير عجبنا. لم تثنني نظرتي لهم عن قناعتي بأهمية وجود حراس حولنا لأسباب تنوعت، بين ترصد من آخرين وتخوف من حاقدين أو موتورين، إلى استكمال لعلامات أبهة، أصبح الوسط الذي يحيط بنا يستطلعها إثباتًا لما وصلنا إليه.

- هات يدك حبيبي..

وجدت يد نور ممدودة إليَّ، تريد أن تساعدني على النزول من السيارة.. تراجعت قليلًا قبل أن أهمس:

- نانسي؟

مالت ناحيتي وهي مُصّرة على الأخذ بيدي:

- ستأتي.. لا تقلق.

أحاطتني بذراعها وهي تقودني من السيارة إلى الرصيف، يحيط بنا شابّان من ذوي الملابس الداكنة، فيما قفز ثالث داخل سيارتنا وبدأ في تحريكها.. لاحظت كم السيارات المتوقفة خلف موكبنا تنتظر أن تعاود سيرها، الذي أوقفناه دون استئذان أو اعتذار. لم يعد هناك ضجيج، بعد أن توقفوا عن إطلاق نفيرهم واستكانوا فيما أظنه استسلامًا لمظاهر ترجموها

بأنـه لا فائدة من الاعتراض على ذوي سـطوة. بلد بأكملـه تحكمه المظاهر وتحدد سـلوكيات مواطنيه هيبة من أمامهم في نفوسهم. لو لم تكن سياراتنا فارهة وحراسـنا باديـن للأعين، لتعالى السـباب وارتفعت الأصوات وضجَّ الشارع بالامتعاض والاعتراض..

ثقافة اعترتنا، يوم داس زعيمنا على زر الانفتاح دون ضوابط، فتمكن قليل منا من اعتلاء قمة الهرم، ورفسوا بأقدامهم من يحاول اللحاق بهم ليحددوا مكانهم ومكانتهم عند سـفحه. يدوسـون أزرارًا دون تمييز ولا تمحيص في تبعاتها، ثم يطمئنون أنفسـهم بأن كل شـيء على ما يرام، تمامًا مثلما حولوا المؤشـر إلـى وضعية السـلام مع عدو حاربتـه أجيال بكل غـالٍ ونفيس، ثم اسـتغربوا حين لم يتقبلهم الشـعب أصدقاءً لحظة صـدور الأمر.. لا يملون ولا ينتهـون عن التلاعب بأذهان شـعوبهم التي لا تجد إلا النسـيان ترياقًا.. يحاولـون أن يمحـوا ذاكرة من يحكمونهـم أولًا فـأول، ويعينهم على ذلك انحناء ظهور رعاياهم تحت وطأة صراع بقائهم اليومي.

رفعت رأسـي، أنظر للمبنى، الذي كنا على وشـك اعتلاء أولى درجات سـلمه.. وجدته رتيبًا، لم يبذل من صممه أي مجهود في كسـر الملل الذي يصيـب الناظر إليه، شـباك تلـو الآخر في ترتيب متكرر، تفصـل بينها أعمدة تبـرز حينًا وتتـوارى أحيانًا أخـرى. طبقات الدهـان التي حاولـوا بها إخفاء بؤس المبنى، تظهر في أركانه وقد بدأت تكشـف عن سـوء صنعة، أو لعلها قلة ضمير من أوكلت إليهم مهمة صيانته.. أما سلم مدخله، فأظنهم اعتبروه جزءًا من الشارع فلم يحاولوا مداواة ما أصابه من تردٍّ وتفتت من كثرة أقدام، أحسـبها داسـته هلعة ملتاعة في طريقها مـن وإلى جوفه.. اسـترعت نظري

العلامـة الضخمـة المعلقـة فوق المدخل، وإن لم أسـتطع اسـتدعاء لفظتها التي هربت إلى سـراديب مخي، إثر مطاردة الممسـحة التي أظنها تصر على إعادته إلى تمام نصاعته التي بدأ بها.

مـا كدنـا نطوي أخـر درجة مـن درجات السـلم، حتى وجدناهـم أمامنا مصوبيـن آلاتهـم المحمولـة نحونـا.. طرقعـات متكـررة لأزرار كاميراتهم الموجهـة إلينـا دفعت أحد حراسـنا إلـى أن يتقدمنا، ويبدأ فـي دفعهم بعيدًا عـن طريقنـا. ضمتني نور تحـت إبطهـا، وأخفضت وجههـا محاولة تفادي عدسـاتهم، وبدأت تسـرع في خطواتها تجرني حتى ظننت أنها تحملني إلى داخل المبنى.

* * *

- ما شاء الله؛ ذاكرتك فوتوغرافية يا فندم..

هذا ما ظل الأستاذ مجدي المحاسب يكرره، كلما أذهلته بتذكري رقمًا قد نساه..

- للأسف، ستزول تلك أيضًا مع الوقت.

هـذا مـا ردَّت به عليّ ذات الـرداء الأبيض التي أصـرت أن تحدثني عن الديمنتيا، حين همهمت:

- ولكن ذاكرتي فوتوغرافية!

يشـرئب في دماغي مشـهد، تحفظت عليه فوتوغرافيـة ذهني، مصحوبة بصوته يعاتبني:

- هل أنت راضٍ عما فعلت؟

أَتذكر بوضوح كل حرف احتوته تلك الورقة:

«عزيزي

تعلم أنني مؤمنة بأن التعبير عن المشاعر لا يكون قولًا، بل يكون فعلًا، لعل أبدعه حين نمارس تلك المشاعر بصورة أو بأخرى. لقد أعدت على مسامعي مرارًا وتكرارًا أنك تحبني وتريدني. وإن كان اعترافك هذا على استحياء يليق بتمهل وعدم اندفاع، كانا دائمًا من أكثر ما جذباني إليك، فقد كان وقعه عليَّ دائمًا أنها كلمات سهلة تقولها، بينما ستجد صعوبة في إثباتها أفعالًا

دعني أعود بك إلى الوراء قليلًا وأطلعك عما أزعجني، وجعلني مترددة على الدوام في قبول عروضك أن نكون لبعضنا. ستفاجئ حين تعلم أني امرأة شغوفة، وإن أظهرت عكس ذلك.. ونوعيتي من النساء، أو لنقل كل النساء، لا يقبلن إلا أن تكون الرغبة فينا غير مترددة. بل أستطيع أن أزيد بأننا نعشق أن تكون الرغبة فينا غير منطقية في الأساس، وأنت يا عزيزي حين احتجتك أن تملكني برغبتك، رحت تحاول أن تجعل الأمور خاضعة لمنطقك ولخططك؛ فجعلتني أرفضك رغم توقي لأن أكون معك.. إنه منطق مقلوب.. أعلم ذلك، ولكنها تركيبة المرأة التى تبغي أن تكون تاج قلب رجلها، قبل أن تتحول راضية إلى خادمة محرابه.. كل ما دون ذلك يجعلها هى الأخرى تمنطق الأمور، فتختار لها أنثويتها بُعْدًا ولو كان القرب ما تشتهي.

لعلك أحببت فيّ عقلانيتي تلك، وكثيرًا ما ينخدع الرجل، فيحب امرأته لمثل هذا، ولكن الحب الحقيقي أساسه غير عقلاني.. كرهت موازناتك وحساباتك، ولم أستسغ أنك تتفكر فيما إذا كنا يجب أن نكون معًا.. لقد جرحني ترددك، ولم يشفع لك غلبة رغبتك في الارتباط بي بعد أن تأخرت.

ولكن تبقى معضلة ما، ضننت أن أصارحك بها وهي أني أحبك.. لم أمتنع عن قولها إلا خوفًا من ضعف واستسلام لك، تكون مغبته تعاسة تالية حين تحكم قبضة تملكك عليّ. لا تخطئ فهمي فأنا لا أرفض تملكك لي، وإنما أريده بشروط ترضيني.. أريد أن أشعر بأنني اختيارك دون تردد.. اختيارك الذي لم تجد حاجة إلى أن توازن بينه وبين غيره.. لا تستخف أو تستغرب ما أقول وإن لم تفهمه، فإنني أعزو ذلك إلى أنه فكر امرأة تحب.

من أجل هذا، قررت أن آخذ نانسي وأبتعد؛ إذ وصلت إلى قناعة بأننا لم يعد بمقدورنا أن نكون على نصف حال، فإما أن نكون معًا أو ننفصل بكل ما تعنيه الكلمة. لقد قبلت عرضًا للعمل بأستراليا، وسنغادر الشهر القادم. أتمنى أن نتجمع هناك، وأن يكون قرارك أن تنضم إلينا.. تلك أمنيتي، وإن كنت سأتفهم تمامًا أن يأتي قرارك عكس ذلك.. لك حرية اختيار في أن تكون جزءًا أو كلًّا من حياتي وحياة نانسي، ولن ألومك على قرارك أيًّا كان. تذكر فقط أن بعدنا عنك لن يضر بنانسي، بل سأجعلها هي الأخرى تتفهم أسبابًا لا تحزنها لعدم وجودك الدائم في حياتها.

أحبك، وسأفتقدك، وأملي أن تكون لنا بكل كيانك، لا بما تسمح لنا به خططك. اجعلنا خيارك إن قدرت..

ليزا

أفرغ من القراءة، فأنظر إليه:

- أعطتك فرصة وخيارًا يتمناهما الكثيرون.

- تريدني أن أنبذ عالمي من أجلها..

- تريدك أن تكون عالمها... لا تضن عليها إن كنت تحبها..

- أأترك نجاحي لأبدأ من جديد!!

- صنعت نجاحك وستكرره من جديد، محاطًا بمن تحب..

- تدافع عن أنانيتها... مكّنتها مني حين سلمتها الكارت الذي كان بيدي: نانسي..

- لم أسلمها كروتًا... فعلت ما فيه مصلحة طفلة، أردت أنت أن تجعلها ضمان إملاء شروطك..

جمود ملامحه وبرودة مشاعره وتحويله كل شيء إلى معادلة، على جانبيها مكاسب وخسائر، منعوني أن أتضرع إليه؛ كي يهمل حسبته المادية ويستسلم لعواطفه. رأيت في آنٍ واحد أثر خسارته، وعناد تمسكه برأيه على وجهه.

- لديك ما يضمن نجاحك وبزوغ نجمك أينما كنت... أذهب ورائهم إلى أستراليا، ستتألق هناك... موهبتك ستتوهج أكثر وسط من تحب..

- وضعت قدمي على طريق، لن أغيره وأنا بعد في بدايته.

- قدِّر أنها أعطتك خيارًا وخذه... لا تجعل الندم رفيقك حينما تنظر إلى ما كان ممكنا يومًا..

لم يكن هناك مجال لأن أنصحه باستخدام العقد، الذي وقعته ليزا، ونصت فيه ألا تحرمه من نانسي. أدركت أن لديه مشاعر لن تسمح له بتنغيص حياة الصغيرة.. لقد جعل نضوجه عاطفته متغلبة على منطقه الذي اعتاد فيه تقديم رغباته، فأيقنت أنه لن يعرض طفلته لأن تصبح محور صراع. نقصته

آنذاك شجاعة اتِّباع قلبه، فصُعب عليه أن يفعل ما لم يكن ليندم عليه.. وددت أن أصرخ فيه وأحكي له عن يوم لم تترك لي فيه رفاهية الاختيار، فلا أجد بي قوة مصارحته بالسر الكامن في قلبي.. لم يمر عليَّ يوم، إلا وأنا أعتصر بألم تلك المواجهة التي انتهت إلى فقدي وليفة فؤادي، وطي صفحة سعادتي.

* * *

أذكر أنني غادرت المنزل يومها مبكرًا، وأخطرت مكتبي أنني في اجتماعات خارجية طوال النهار، وأعطيت تعليماتي للسائق بأن يسرع إلى شقة جاردن سيتي.. كنت توَّاقًا أن أستكمل احتفالية، بدأتها أنا وسارة بأمسنا بمناسبة عيد زواجنا الثاني.. فاجأها دخولي عليها، وهي التي اعتادت أن أخطرها بموعد زيارتي. استغربت ذبولها، وأنا الذي تركتها ليلًا زاهية مزدهرة:

- ما بك حبيبتي؟!

صمتت، فعاودت السؤال وألححت فيه، و كلي قلق من حالها..

- حبيبي ما بي يلح عليَّ منذ فترة، ولكن سعادتي بنا تعطل إرادتي ورغبتي، كلما هممت أن أخبرك به..

تلاطمتني أفكار كلها وجلة، وأنا أسمع صوتها المكسور:

- لم أعد أطيق وضعي... لم أعد أستطيع أن أستمر الثانية..

- أعرف أنني تأخرت في عمل ما وعدتك به، ولكن أعدك بأن أفي به قريبًا..

- لا أريدك أن تفي بهذا الوعد بالذات... لقد أحببت أبناءك من شدة حبي لك، وأكره أن آخذك منهم..

- لن تأخذيني منهم، سعادتي معك أنت، ولن أقصر فيما يخصهم..

- لن تكون مرتاحًا وأنت بعيد عنهم.. أعرفك الآن جيدًا وأعلم تمامًا مفاتيح سعادتك.. أرجوك أنا لا أخيِّرك بيني وبينهم؛ أنا أطلب منك فقط أن تتركني لحالي.. اتركني وأنا أحبك... أخاف يومًا تنتصر مرارتي فتتغير مشاعري نحوك..

ثم بدأت تشرح لي كيف يتوقف بها الزمان، وتنطمس ملامح المكان، وأنا معها فتصبح دقات قلبي وحدات زمنها، ويتحول وجودي بقربها إلى بوصلتها.. وكيف أنني في كل مرة أغادرها، أنبئها بأنني أجتر من ذكريات لقائنا وقود صبري حتى لقيانا من جديد. أقسمت لي أنها حاولت مرارًا أن تنهج نهجي، ولكنها فشلت إذ إن فراقي - في كل مرة - لم يأت إلا بغصة تعتريها، وألم يكاد يشل جسدها لا تستطيع مغالبته، إلا حين يقترب موعد لقاء جديد فتبدأ في التجمل انتظارًا لوصولي.

- لم أشك لك ألمي هذا لأنه كان يختفي بلا أثر لحظة ظهورك..

تزحف ابتسامة مرهقة إلى وجهها وهي تقول لي:

- حبي لك يجعل غيرتي ترفض تصورك مع غيري.. فما بالك وأنا أتخيلك في أحضانها!!

ثم تنساب دمعة غالية من عينها:

- أعلم أنك لن تكون لي وحدي أبدًا... لا أعترض، ولكني لا أستطيع الاستمرار..

تلتقط أنفاسها من لوعة هدجت صوتها:

- يقتلني قولك في نهاية مكالمتنا اليومية: أنك عائد إلى المنزل.. أريد أن أكون أنا المنزل، الذي ترجع إليه.. أموت سقمًا حين أدرك أن المنزل الذي تعود إليه ليس شقتنا، وأحيا من جديد، حين أسمع مفتاحك يداعب قفل الباب لتدخل عليَّ..

أقوم وآخذها في حضني، فتفصح بتردد عن مشاعر وهي لا ترغب:

- لم أعد أستطيع أن أشم رائحتها ملتصقة بجسدك، فأتخيل مطارحتك لها الغرام في ليلة سابقة..

في كمد، أسرت لي وأفهمتني أن الأكثر وجعًا ليس ما لم يكن لنا يومًا؛ بل ما امتلكناه برهة من الزمن ثم افتقدناه ولو لحظات. لم أكن أعلم أن في كل مرة ودعتها، ورأتني أقفل باب شقتنا مغادرًا، لم يفارقها وجهي وأنها كانت تمد يدها محاولة التمتع بلمس تقاطيعه، فيصدمها أن رفيقها خيال وهي التي تحتاج واقعًا لا يغادرها.. قالت لي إن حبها لي جعلها تدرك أن الإنسان لا يزدهر في عمر معين كما يدعون، بل إن الرفقة هي السبب الأوحد للازدهار، وفي رفقتي تحل فيها الروح وتدب في جسدها الحياة.

أضمها بقوة فتتوحد نبضات قلبينا، فتعود منهية اللحظة:

- أنانيتي تريدك مِلكي وحدي، وحبي يملي عليَّ أن أحررك مني أو لعلي أحرر نفسي من عدم قدرتي على تملكك..

أتوسل بصوت مشحون بالشجن:

- أرجوك.. لا يمكن أن أتركِكِ.. لن نفترق أبدًا.. سأكون لك وحدك..

تفلت مني الدموع، وهي تقول:

- اسمعني يا حبيبي: قد نكون أخطأنا حين أقدمنا على زيجتنا التي تحتم أن تكون سرًّا؛ وأنت لم تخدعني من أول يوم.... لو أنه خطأ فلايزال أفضل ما أتيت في حياتي..

بدأت ترجوني من جديد ألا أجزع وألا أبتئس مما أصرت في طلبه، بعد أن لم تعد بها قدرة على الاستمرار زوجة ثانية. ويمزيد من الانكسار ذكرتني أن أهم مشبعات الحب وأوردته الأساسية، أن تستطيع العاشقة أن تتباهى بحبها وأن تعلن للعالم عشقها، وأن تتأبط في العلن ذراع سبب سعادتها.. تريدني ملك قلبها المعلن، لا ولهه المخبأ بعناية في غياهبه.

قالت لي:

- أريد أن أكون زوجة عاشقة لا عشيقة بلقب زوجة، تسرق لحظات متعتها... لا أريد أن أكون سرًّا لا يعرفه إلا سائقك..

أسكتها، وأكدت لها أني سأصلح الأوضاع بأسرع ما يمكن وسأكون لها وحدها، دون شريك.. فهددتني:

- إن فعلت ذلك لن تجدني... خالفت تربيتي مرة حين قبلت أن أكون الثانية، ولن أخالف ما نشأت عليه من جديد بقبولي أن تكون سعادتي على حساب آخرين، لم يؤذوني يومًا، بل إنهم لا يعرفونني من الأساس..

عادت من جديد لتزيد حيرتي:

- لا تسلني لِمَ قبلت بداية ما يخالف ما شببت عليه؛ فتفسير ذلك الوحيد هو توقيتك... جئتني في وقت احتجت فيه إلى من يحتويني ويدفئ قلبي

الذي اشـتدت عليـه وحدته.. والآن أدين لك بقوة مدنـي بها حبك، فأصبح باستطاعتي أن أعيد نفسي إلى ما أعلم أنه الصواب..

غادرتهـا يومهـا بعدمـا ظننت أننـي أعدت إليهـا هدوءهـا، وأن كلماتي طمأنتهـا، فطلبت مني وأصـرت أن أتركها وحدها برهة وأعود.. حين عدت وناديت عليها، لم تجبني، وإن استرعى نظري ظرفًا مسنودًا على علبة تيفاني في صدر مدخل الشقة:

«حبيبي

لأننـي أحبـك أتـركك.. ولأني واثقة مـن حبك لي أعلم بأنك سـتحقق لي رغبتي، وسـتتركني أمضـي في هدوءٍ أبغاه.. لأني أحبك، سأسـعد دائمًا بالقليـل الـذي تمتعـت بـه منك. ومـن هـذا القليل، سـأداوي جـرح فراقنا وسأسـتعمل الزمن حتى يحيل حبي نبضًا غير موجع أحيا على ذكرى روعة مذاقـه. أتركك وأنـا لا آمل أن يتيح لنا القدر فرصـة أخرى كيلا أعيش أتوق ثانية إليها؛ فالأفضل أن أقتات على ذكريات بديعة مشـبعة.. أرجوك أن تقبل منـي هذا قرارًا، لا خيارًا وألا تشـق علـيّ بمحاولات اسـتعادتي.. أثق أنك تحبنـي كمـا أحبك وثقتي في محبتـك تجعلني متأكدة من أنك سـتحقق لي ما نويت عليه، دون إرهاق لا جدوى منه.

لا تحـزن لفراقنـا، بـل اسـعد بمـا جمعنـا، وإن كان وجيـزًا. أرجوك إن لم أسـتطع أن أكون سـببًا أوحد، فاتـرك لي متعة تخيلك سـعيدًا في حياتك دوني.

أحبك

سارة»

11

دلفنا يمينًا إلى طرقة طويلة داخل المبنى، ومازال المصورون يطاردوننا، والحراس يبعدونهم:

- ممنوع التصوير لو سمحت.

فيعلو صوت أحدهم:

- قضية رأي عام يا أستاذ؛ من حقنا!!

يستعر صراع محاولاتهم ومقاومة من يحموننا الذين تبدأ دفاعاتهم في التحول، من الاعتراض القولي إلى استخدام أيديهم في دفعهم بعيدًا. يبدو لي أن الموقف في طريقه إلى التأزم، وإن كان حاملو الكاميرات يترددون قليلًا خشية مغبة الاشتباك مع ذوي العضلات المفتولة، فيبطئون تتبعهم لتزداد المسافة فيما بيننا. ألحظ تفاصيل المبنى البائس الذي نقطع إحدى طرقاته الطويلة، فأتيقن أنه كان ذا هيبة كبيرة ذات يوم.. هيبة مازالت آثارها ظاهرة على من حولنا، فالوجوه كلها جادة أقرب للاكفهرار لا تتبسم، والكل يمشي بجدية في اتجاه أو آخر دون تردد. أتخيل من وقع تعبيرات الوجوه التي أرقبها أن الجميع يريد سرعة إنهاء سبب وجوده هنا، والخروج

بأقل الخسائر. تسيطر الرماديات بأطيافها على الحوائط، بعضها مقصود ومعظمها بصمة تركها الزمن ليؤكد كآبة، اختارها المكان سمة له.

نتوقف أمام رجل متأنق، درجة لون رباط عنقه مدهشة التناسق مع لون بدلته:

- أهلًا أهلًا يا باشا..

يحدق فيَّ منتظرًا مني ردًّا، ولكني لا أستطيع تمييزه، وتستمر محاولاتي في معرفةِ لِمَ يوجه لي سلامًا، وأنا ليست لي سابق معرفة به..

بتردد يمد يده نحوي:

- عادل ثابت المحامي يا فندم.. محامي حضرتك..

تتدخل نور، وفي نبرة صوتها نوع من التأسف:

- عادل بك.. الوجوه مختلطة والنسيان في بعض الأحيان لحظي... اعذره... ينسى وجهي، ومن أكون في بعض الأحيان، وهو يحكي لي عني!!

يخفض صوته الذي يصلني رغم محاولاته وهو يقول لها:

- نرجو ألا يكون هذا الحال بالداخل يا هانم... نحتاجه في أحسن حالاته..

ثم يتقدمنا بخطوات سريعة، قبل أن يفتح أحد الأبواب التي بالطرقة، التي كدنا ننهيها:

- تفضلوا سننتظر هنا.. تفضلوا..

على الجانب الآخر للباب الذي فتحه، كانت هناك قاعة واسعة خاوية على حوائط لونها ملطخ بحزن أتربة، ألصقها بها الزمن ورفضت أن تفارقها. صفوف متتالية من الدكك، تربض في صمت، أملته عليها المنصة المبجلة التي تقف أمامهم في شموخ، قصده من اختار موضعها. خطفت نظري العلامة المعلقة خلف المنصة؛ ميزان تستوي كفتاه، نحاسه ذو لمعة متألقة، على غير حال المبنى كله، ويرفرف فوقه صقر، ثقته بادية، وإن لم يجد نصيبًا من الرعاية، فتجنزر معدنه واكْلح لونه، وإن زاده هذا هيبة مجهولة المصدر.

أجلستني نور على الدكة الأقرب إلى الباب الذي وقف يحرسه من الداخل أحد مرافقينا، في حين أحكم إغلاقه من الخارج الاثنين الآخرين.. ربتت على ظهري، تتأكد من أنني مرتاح، ثم انتحت جانبًا ومعها ذو البدلة الانيقة والآخر ذو الابتسامة التي لا أطيقها، يتحدثون بأصوات خفيضة؛ فلم أستطع تمييز فيما يتشاورون.. فقط طال مسامعي قول أحدهم:

- انتبه يا أستاذ عادل.. إنه قليل الكلام؛ وفي معظم الأحيان لا علاقة لكلماته القليلة بالحديث أصلًا.

أرحت ظهري مستندًا إلى ظهر الدكة، لا أعرف سببًا لوجودي في هذا المكان وإن أدركت أن ما عليّ سوى الانتظار.. لم تكن فضيلة الصبر من شيمي يومًا، ولم أستسغ الانتظار طوال حياتي فطالما فضلت التقدم وآخذ زمام الأمور بيدي. عزا كثيرون نجاحاتي المتكررة إلى إقدامي هذا ولعلهم أصابوا، وأنا من رأيت في التأني ضعفًا وقلة حيلة. على ندرة انفلات الأمور

مـن يـدي وعدم تحكمـي في المواقـف، إلا أن تلـك المرات النـادرة، التي اضطررت فيها للانتظار لم تفارقني ذكرياتها قط.

***

لا أسـتطيع وإن تمنيت نسـيان يوم أمسـكت فيه بيد ماجـدة، وهي ملقاة علـى أسـفلت الطريق، تختلـط دموعهـا بدمائها المنسـابة وأنـا لا حيلة لي إلا انتظار سـيارة إسعاف، أكد لي الملتفون حولنا أنه قد تم استدعاؤها. كان الزمن بطيئًا ثقيلًا لا يكاد - أو بالأحرى - لا يريد مُضيًّا قبل أن يقاطع ترهله الأضواء الزرقاء والحمراء التي تتناوب التغاير من فوق سيارة الإسعاف، على خلفية ضجيج نفيرها المطالب بإفسـاح الطريق.. لم أترك يدها التي ضعُف تمسـكها بيدي، وأحسسـت ببرودة تغلبُها وتستشـري في راحة كفها، رغمًا عن قيظ الشـمس، الذي اسـتمر الإسـفلت في امتصاصه ونقل لسعته إلينا.. نقلوهـا وأنا مازلت ملازمها إلى داخل السـيارة، وبدأنـا نتحرك وقد راعتني نظرة الذعر، التي غمرت وجوه المسعفين. لم يردوا على تساؤلي عن حالها ولا عما سـتكون بخير أم لا، واكتفوا بأن بدوا منشـغلين في مسح الدماء عن وجهها والبدء في مداوة ما ظننته لا أولوية له.. توقفت عن سـؤالهم وعدت من جديد إلى حالة انتظار لوصولنا إلى المستشفى.

حيـن توقفت، وصلنا وفتحوا أبواب السـيارة الخلفية لينزلوا النقالة التي تحمل ماجدة، ورأيت الجمهرة التي نتجت عن اتصالاتي من وقت الحادث.. موظفون من شركاتي، ومسئولون في الشرطة، ومعارف من الأطباء اصطفوا فـي انتظـار وصولنا يحيطـون بنور، التي توسـطتهم شـاحبة لا تخفي فزعها مما سـمعته مني قبل قليـل.. جرت «نور» نحونا، ثـم مالبثت أن تأكدت من

صعوبة الوضع، حين وجدتني أنزل ساهمًا زائغ العينين، وأمها لا تتجاوب مع ندائها، وتستمر في إصدار الأنات والآهات القصيرة المحمومة. كان من الواضح أن الألم يزداد تمكنًا من جسدها، الذي استحال مائلًا للزرقة من أثر الكدمات التي نالت منه. من المدخل إلى مصعد الطوارئ مباشرةً إلى حجرة العمليات، التي منعونا عندها من التقدم.. ومن هنا، تولت الأمور مجموعة من أمهر وأشهر الأطباء من ذوي الأسماء الرنانة، كنت قد أعطيت تعليماتي بأن يتم استدعاؤهم حيثما كانوا؛ ليبدأوا في إسباغ مهاراتهم على طريق إعادة ماجدة إلى أحسن أحوالها.

رفضت أنا ونور أي محاولات لإبعادنا من أمام باب حجرة العمليات، فتجمع من حضروا على بعد خطوات منا ينتظرون. يتطلعون إلينا، في أسًى وشفقة، مما شعروا أنه ينتظرنا حين تفتح غرفة العمليات أبوابها من جديد. حتى ما احتجته من علاج لذراعي المصاب وتضميد للجروح التي بفمي، أصررت أن يقوموا بها حيث كنت، أنا وابنتي ننظر خروج ماجدة. طالت جلستنا وامتدت بلا أي إشارات من خلف الباب، الذي تمركزنا نحرسه.. لم يقطع صمتنا إلا مكالمات سامي من لندن، التي اختار أن تكون عند تمام كل نصف ساعة. بداخلي، تصارعت مشاعر عدة، كان كل شعور منها يبغي أن يكون الغالب.

أحمل نفسي مسئولية ما أصابها، فيغمرني الندم ويعتصرني تأنيبي لنفسي على رعونتي.. مع استمرار جَلْدي لذاتي تبدأ مشاعر الفقد في التسلل خفية في البداية، حتى أجد نفسي مدمعًا كاتمًا بكائي بأقصى ما أستطيع عن نور الجالسة بجواري. ثم ما يلبث اليأس أن يتغلغل ويملأ فراغي الداخلي،

موصدًا بغطائـه القاتم باب أملٍ، حاول الازدياد مع تكرار دعائي وتضرعي. كالموج العاتي، ظلت الأحاسيس تعلو بي تارة وأنا أناجي السماء وتخسف بي تارة أخرى، وهي تطحنني كمدًا وحزنًا عما أصبحت أتحمل مسـئولية ما سينتج عنه من خسارة.

بهدوء، انفتح الباب الذي تعلقت به أنظارنا ليتوسـطه الجراح المشهور، منهـكًا تَعِبًا من إثر سـاعات سـت قضاها يعمل بلا توقـف، محاولًا أن يرمم جسـد ماجـدة. لم نحتـج إلى أن نسـأله؛ إذ بادرنـا بصوت متكسـر من فرط الإرهاق:

- أمامنا ساعات حرجة، قبل أن نعرف النتيجة المرجوة لما قمنا به.

تـلا تصريحه هـذا خروج ماجـدة من غرفـة العمليات، فـي طريقها إلى العناية المركزة، فتشبثت أنا ونور بسريرها ورفضنا أي محاولة لفصلنا عنها. ولأننـا من ذوي الحيثيـة وأصحاب النفوذ، تنازلت المستشـفى عن لائحتها التي تمنع تواجدنا المسـتمر إلـى جوارها، وانهارت أمـام توصيات معارفنا لمديريهـا أي احتمالات بأن نلتزم بالمعلن مـن تعليماتهم بخصوص أهالي المرضى.

كلمـا نظـرت إليهـا وهي فـي غيبوبتهـا، ظننت أن جسـدها قـد انكمش وصغـر حجمه.. غلبها هزال واضح من أثر الإصابات العديدة التي احتوتها الضمادات التي لفت أغلب جسـدها.. عيناها موصدتان باستمرار، وعلامة الحيـاة الوحيـدة التي لـم تفارقها كانـت صعـودًا وهبوطًا متأنيـن متروين لصدرها، مع كل نفس تجتهد للحفاظ عليه. كل سـاعة أو أكثر قليلًا، يدخل طبيـب يتفحصها باحثًـا عن أي علامات تقدم في الحالة، فيتكرر شـده على

يديهـا، وهـو آمـل أن تضغط ولو في وهـن على يده. ثم يكشـف عن قدميها ويمشطهما مرة ويدوس بسن دبوس مرة أخرى مستطلعًا أي تجاوب أو ردة فعـل تصدر عنها للمسـاته، فتعانده وتظل على سـكونها. ثـم قبل أن يغادرنا يخـرج من جيبه كشـاف نـور صغير، ويفتـح عينيها مصوبًـا إليهما حزمة من الضوء فيرد عليه جمود مقلتيها بأن لا جديد في الغيبوبة، التي أخذت تغوص في أعماقها أكثر وأكثر. بين طيات لسـاني تتوارى كلمات سـؤال مستمر في الإلحاح عليَّ، أريد له نفيًا:

- أنا سبب ما هي فيه؟ أم القدر؟

حيـن وصل سـامي على طائـرة اليـوم التالي جـاءوا به إلى المستشـفى مباشـرة، وبعد أن تفحص أمـه وراجع ملفها الطبـي، وتناقش مع من أجرى الجراحـة، دخل هو الآخر في حالة صمت ووجـوم، ومع إلحاحي أنا ونور اضطر أن يصارحنا:

- الحالة سيئة جدًّا، وحتى الآن لا توجد أي علامات مبشرة... غيبوبتها تزيد!!

من وسط دموعي رجوته:

- اعمـل اتصالاتـك يـا سـامي، ولنأخذهـا إلـى لنـدن... أكيـد عندهم بدائل..

***

يسـترجعني مـن هلع الذكرى صرير باب القاعة، وهـو ينفتح لتدخل منه سـيدة أنيقة الملبـس.. فسـتانها الأزرق الداكن أبرز تفاصيله وشـاح أصفر، ربطتـه بدقـة حـول عنقهـا. واسـتكمالا لكمـال اختياراتها لألوان ملبسـها،

تناسـقت الحقيبة الزرقاء ذات الخطوط الصفـراء الهادئة مع حذاء لابد أنها اشـترتهما معًا طقمًا واحدًا. ولكن اللون الوحيد الذي تصدر المشـهد، كان هـذا الاحمـرار الاسـتثنائي الذي صبـغ شـعرها، وبقايا نمش خجـول كأنه انعكاس حمرة شعرها، يزين خديها مبرزًا عينيها الواسعتين اللتين استكملتا دقـة جمـال هادئ كسـا وجههـا. بخطـوات ملأتهـا الثقة، اتجهـت نحوي، ووجهها يسـطع بابتسـامة ناعمة ويدها تمتد بتؤدة إليّ. ثم كان أن احتضنتني وضمتنـي طويلًا، وأنا جالس لا أتحرك قبل أن ترخي يداها من حولي وتلثم جبيني بقبلة طويلة. أنظر اليها باسـتغراب، وأنا أفاوض ذهني كي يفصح لي عمن تكون؟ أجاهد وأجتهد في البحث في ثنايا دماغي عما يدلني من هي؟ تعلن الذاكرة اسـتمراءها الخيانة وتعلي عنادها رافضة أن تفصح عن دليل - ولو صَغر - ينهي حيرتي.

اسـتغرب الدفء الذي ملأني من وقع حضنها وأشـعر بالألفة مع قبلتها علـى جبيني، كما لو أن مذاقهـا ليس بغريب عليّ.. مازلـت أحاول التعرف عليهـا خاصـة مع ازدياد ضربـات قلبي لقربها، فأشـعر أن قلبي تعرف عليها وأن ذهني اللعوب يأبى إلا أن يخفي عليّ من تكون.. أكاد أقسـم بأن رائحة جلدها وملمس يدها بل وطعم شـفيتها على جبيني، كلها أمور مما اختبرت وهويـت. تظل الذاكرة تعاندني، فتطيح بمحاولاتـي المتتالية فلا يكون مني إلا أن أسحب جسدي بعيدًا عن يديها الحانيتين.

تتقـدم نـور ناحيتها، فيتعانقـان طويلًا، وحيـن ينتهيان ألحـظ دموعًا في عيون الصهباء، تكفكفها نور هامسة:

- لا تحزني... نفس حاله معي في أحيان كثيرة..

ألتفت إلى يميني بعد أن شعرت بأن أحدًا قد جلس بجانبي؛ لأفاجئ بها، وأشعر بها وقد أحاطت بذراعها كتفي وشدتني نحوها:

- نانسي... أخيرًا آتيت!!

ثم أعتب عليها، دون أن يسمعنا الآخرون:

- تأخرتِ عليَ كثيرًا وتركتِني وحيدًا..

تبتسم وأشعر بها تضمني من جديد، فتأخذني من كل المحيطين سعادة وراحة وجودي بقربها..

***

يعيدني هدوء يعم المكان إلى الهدوء الحزين، الذي أحاط معنا بسرير ماجدة على متن الطائرة بعد أن أقلعت بنا إلى لندن. لم تكن طائرة عادية، بل مستشفى طائرًا مجهزًا، علَّه يكون أفضل من ذلك المستشفى الذى تركناه بالقاهرة.. سافرنا نبحث عن معجزة تعيدها إلينا، بعد أن استمر أطباؤها في مط شفاههم معبرين عن عجزهم وتوقف علمهم عند ما قدموه، ثم اكتفوا بمشاركتنا الدعاء لها بالشفاء.. لم نتردد في دفع آلاف الدولارات لاستقدام تلك الطائرة الخاصة وطاقمها المتمرس؛ لتطير بنا إلى لندن، تداعبنا خيالات أن ينجح علماؤها فيما عجز عنه أطباء مصر، الذين رفعوا راياتهم البيضاء أمام حالتها.

- حال جدتك كان صعبًا جدًّا يا نانسي..

أتوقف، وقد تشققت حنجرتي من مرارة ما أرويه ثم أعود:

- عدنا إلى الانتظار من جديد هذه المرة في استقبال مستشفى «أولد برومتون»، التي كان يعمل بها أبوك.. لم يشفع وجوده في استثنائنا أو في

أي تحايل على أي بند من بنود لوائحهم الداخلية... ولم يحاول هو أيضًا أن يوفر لنا معاملة خاصة..

أشعر دائمًا أن نانسي لديها قدرة على الاستشعار وبمنتهى الدقة لما أمر به ويخالجني من أحاسيسي، فتحضرني ربتتها على كتفي في وقتها، وتزغلل عينيّ ابتسامتها وقتما أحتاجها.. هاهي تفعلها من جديد، فتقترب مني، تشعرني بوجودها، وقد ازدادت الغصة التي بي، من فرط مرارة ما يجول بخاطري.

اختار الوقت أن يطول ويبطئ، قبل أن نجد «سامي» مرافقًا للطبيب المعالج متجهين حيث جلسنا أنا ونور. ببرود جعل قشعريرة تسري ببدني وباشرنا دون مقدمات وبإيجاز تام:

- أكاد أجزم بأن الحالة ميئوس منها... ستحتاجون إلى اتخاذ بعض القرارات، وسأترك للدكتور سامي شرحها لكم..

قبل أن يغادر، كدت أستجمع قواي لعله يعطيني نفيًا للسؤال الذي كان يقتلني ببطء:

- أنا سبب ما هي فيه؟ أم القدر؟

قبل أن أنبس بكلمة، أجبن من جديد خشية أن يكون رده إيجابًا فأؤثر ألا تسمع أذناي ما لم يمل ضميري تكراره.. القرائن كلها أشارت إلى أنني الجاني، وتجاهلت أن يكون للقدر يد فيما حدث.. بصماتي التي غطت مسرح الجريمة برأت أي أطراف اقترحتها على جلادي الداخلي المستمر في تعذيبي، دون كلل.

جلس سامي قبل أن ينظر إلينا، ويبدأ في حديث بصوت متهدج، لم أسمعه منه، لا قبل ولا بعد هذا اليوم:

- لقد وصلت إلى درجة دنيا من الغيبوبة، لا نظن أنها ستعود منها... أصبحت معتمدة بصورة كاملة على أجهزة التنفس الصناعي.

يسكت، فتتساءل عيوننا فيعود ليجيب:

- ما أصاب مخها من تلف سيجعلها معوقة تمامًا، حتى إذا حدثت معجزة وعادت من الغيبوبة، فإنها ستعيش جسدًا بلا روح ولا قدرة... تعيش بمساندة أجهزة تنفس لا تحيا دونها إلا دقائق... وحتى هذا مرهون بمعجزة، لا نظنها تحدث..

يسيطر على مجلسنا صمت ممتد مشحون بكثير من الحزن والألم، مايلبث أن تقطعه نحنحة غير متوقعة من سامي. بعد أن استرعى انتباهنا، أخبرنا في تماسك مفتعل:

- تركوا لنا قرار فصل أجهزة التنفس عنها..

أشعر الآن بالدمعة نفسها التي جرت على وجنتيّ، حين سمعت ما قاله يومها.. لحظتها نظرت إلى نور فوجدتها وقد دفنت وجهها بين كفيها وعلا نحيبها الذي لم تستطع أن تداريه، ثم مالبثت أن رفعت رأسها تجاهي قبل أن تنهار في أحضاني.. من وسط دموعي المنهمرة، استجمعت بعض قواي لأسأل سامي:

- ولماذا لا يتركوتها على أجهزة التنفس الصناعي؟

- لأنهم يؤمنون بأنهم يطيلون حياة بغير طائل ولا أمل... يعتبرون أن هذا ضد الطبيعة..

وعاد لصمته من جديد، قبل أن يعود قائلًا:

- في مثل هذه الحالات، أنصح أهالي مرضاي بأن يفكروا فيما سيكون قرار المريض نفسه، لو كان قادرًا عليه... هل كان سيتمسك بحياة مميكنة صناعية، أم سيفضل موتة كريمة دون ألم... هذا هو السؤال الذي نحتاج أن نجيبه بالوكالة عن أمي!!

ثم انهار سامي هو الآخر، فوجدتني أضمه مع أخته وأحتضنهما معًا كما كنت أفعل وهم بعد أطفال.. وحين ظننتهم هدأوا، شرعت أتساءل من جديد:

- ماذا لو حدثت معجزة!!... لماذا نتسرع، ونوقف أجهزة تمد في حياتها؟

- قلت لك إنها حتى لو استفاقت، فستكون في حالة لا نريدها لها ولا تملك لنفسها أي قدرة على الإتيان بأي شيء... الموت أفضل لها..

قالها ثم عاد إلى نوبة بكاء مطولة، لم تتوافق مع صورة منزوع العاطفة التي طالما انطبعت عنه في عقلي.

تجمعنا حول سرير ماجدة، وقد نزعوا الأنابيب الكثيرة، التي كادت تكون جزءًا من جسدها، منذ الحادثة.. كانت مستلقية على ظهرها، ويداها ممدودتان إلى جانبها، وعلى وجهها تطفو - من آن لآخر - ما كنا نأمل أنه

ابتسامة إلى أن شرحوا لنا أنها نوع من التشنجات، تسببها ما تبقى بها من شحنات مخية تأتمر بها عضلات وجهها.

أمعنت النظر إليها، فوجدت طيفها يأخذني إلى أول يوم تقابلنا فيه، في حفل أم كلثوم، ثم وهي مقبلة عليَّ عروسًا متلألأة بفستان زفافها.. استعدت وجهها وأوجاع المخاض تبكيها، وطالعتني ابتسامتها - وهي ترضع «سامي» و«نور» - تشع بهجة رغم التعب. تتابعت الصور صورة تلو أخرى من رحلتنا معًا، وفي كل منها ماجدة ممتلئة بالحياة، ممسكة بدفة عائلتنا بحكمة ترسينا دائمًا دون جلبة على ضفة فيها سلامنا. كم أحببتها وكم تحملتني! وأنا واقف ساعتها، شعرت بها تسيطر على كل حواسي؛ أشم رائحة جلدها المميزة وأتوق لمذاق شفتيها، وأسمع صوتها هامسًا وزاعقًا، يشجيني في الحالين.. أرى جمالها شابة يتحول إلى وقار بهي مع السنين، وأحس بملمس يدها القوية تشدني من عثرات، مررنا بها معًا أثناء رحلتنا. أنظر إليها فتنهمر دموع فقدان رفيقة رحلتي، التي صلبت ظهري ودفعتني إلى العلا.

أمعن النظر، فيكاد قلبي يتوقف، وأنا أسترجع ضحكاتها والسعادة التي غمرتها، ونحن منطلقان بالسيارة.. تجلجل ضحكتها في رأسي ومن بعدها تنزوي ليحل أنين ماجدة موضعها.. يسيطر عليَّ خاطر بأنها ستفيق في أي لحظة وأنها لحظة ترانا ستعاتبنا إن تركناها، دون أن نعتني بأناقتها، التي طالما حرصت عليها.

- أتدرين يا نانسي.. ما أصعب شعور يمكن أن تقاسيه؟

لـم أنتظر ردًّا:

– الافتقـاد بلا أمـل في اللقاء... أوحشـتني ماجدة، وهـي ملقاة أمامي، بلا حول ولا قوة... ومزقني أن وحشتي لن يؤنسها وجودها من جديد.

حيـن أومأ سـامي إلى الأخصائي، قـام بإطفاء جهاز التنفـس الصناعي، فتسارع نبضها كما بينته شاشة المراقبة بجانب سريرها، وتقدمت نور نحوها واعتلت السرير إلى جانبها وأخذتها في حضنها.. حاولت أن أحذو حذوها فأبت قدماي وتسمرتا مكانهما، لا تبغيان حراكًا. سامي وجد في نفسه قدرة أن يهبط على صدرها منتحبًا، وهو يشد يد نور ليحتضناها معًا. تثبتت عيناي علـى شاشـة نبضات القلـب، التي راحـت تتباطئ، بعد أن أنهكها تسـارعها السـابق، وعلـى إيقـاع قلبها المستسـلم، تسـيل دموعـي و يسـتعمر الخواء بداخلي بعدما صار فضاءً أجدب.

ومن وسط هذا الفضاء، تطل عليَّ مشاعر فقد لا وصف لها، تهزني وتشل كل خلجاتي، توغر جرحي وتمعن في إيلامي.. أتنفس ببطء كما لو أنني أنا الـذي منعوا عنه الهواء، وتبلل شـفتيَّ مرارةُ فيض الدمـوع التي لا تتوقف.. أشـعر بصراعها من أجل التقاط أنفس أخيرة، فتنطبق ضلوعي على صدري تكتـم أنفاسـي أنا الآخر. أنيـن صافرة طويلـة رتيبة، يعلن انسـحاب روحها ونهايـة حيـاة انخلع معها قلبي، وهـو ينبض منتحبًا.. أمد يـدي نحوها، وأنا أنـادي عليها في صمت ألا تذهب، فيندثر ندائـي مع زئير جهاز المراقبة بأن نبض القلب قد غادرنا.

12

نصعد إلى الطائرة وحدنا بعد أن منعوا من دوننا؛ طبقًا للمعتاد وقواعده، في ترجمة فجة للطبقية التي ترفل فيها البشرية. ينادون على ركاب الدرجة الأولى ويطلبون من البقية الانتظار، أو - فيما أظن - التوقف ومشاهدة الأفضل منهم طبقًا لمعايير نظرية الارتقاء الطبقي. لم يؤسس داروين لهذه النظرية، بل أرساها إنسان الكهف الأول، الذي مكَّنته عضلات ساقيه من تقدم صف المجموعة التي استسلمت لقوته الجسمانية، فقبلته زعيمًا. الفارق في عالمنا وزماننا أن العضلات أصبحت تُشترى، وأن المال غدا وسيلة الصعود والتقدم.

تستقبلنا على باب الطائرة مضيفة حسناء تستزيد في ابتسامتها؛ حتى تناظر الثمن الذي تعرف أننا تكبدناه؛ من أجل تذكرة الدرجة الأولى. سرعان ما تخجل ابتسامتها وتنزوي أمام عبوس وجوهنا البادي، فتفضل أن تقودنا في هدوء وبترحاب، لا تمل تكراره إلى مقاعدنا، قبل أن تعود لتتفحص بترحاب أقل ركاب الدرجة السياحية الذين سمحوا لهم بالدخول، بعد أن اطمأنوا إلى أننا لن نضيق بوجودهم.

أجلس في المقعد الوثير وبجانبي نور.. أَشخص في خطوط وجهها لأجد كل دقيقة فيه موروثة دون استحياء من ماجدة.. اختار حزنها أن يفرض

نفسه على قسماتها، وأعلن عن حضوره من خلال تورم عينيها واحمرارهما من أثر بكاء لم يزل حاضرًا. تعرض علينا المضيفة الحسناء مشروبًا منعشًا ونحن منتظرين الإقلاع، فأشيح بوجهي ناحية النافذة، أتابع ما يجري على أرض المطار. مازالت الحقائب تحمل من على العربات إلى بطن الطائرة، بمعرفة عاملين ماهرين واضح تمرسهما فيما يأتونه. من أقصى ركن الشباك، وبطرف عيني ألمحه، هناك بجانب الأمتعة، راقد في سكون ينتظر دوره في التحميل. صندوق خشبه أنيق، عقده تتنفس، في حين تفتقد الراقدة بداخله هذه القدرة. تؤرقني الوحشة التي لابد وأنها تقاسيها في وسط عتمة وقتامة التابوت، فتجتاحني قشعريرة لا تتركني إلا والدموع تترقرق من مقلتي في صمت، يماهي سكونها الأبدي داخل الصندوق.. يأتيني طيفها ببسمتها الأخيرة، وهي إلى جانبي في السيارة تناشدني:

- كبرنا على هذا!

أراهم يحملون صندوقها ليبتلعه جوف الطائرة، في مكان تكلفة حجزه أغلى من المقعد الفخيم الذي أحتله. اتعجب أن تكون تسعيرة انتقال الجسد بلا روح أغلى ممن يستهلكون أكلًا وماءً وهواءً. يروح ذهني إلى رحلات أخرى ترافقنا فيها وتجاورنا جلوسًا على طريق عودتنا. أحبت ماجدة السفر طوال عمرها وبرقت عيناها كلما ركبت طائرة، فإما لمعانًا ونحن مقدمين على رحلة جديدة، أو اشتياقا لعودة إلى الوطن بعد رحلة تمضي. لم تصبها رتابة الاعتياد، التي لازمتني بعد أن كدنا ننتهي من زيارة كل أركان المعمورة فاحتفظت بتلك الفرحة الطفولية، التي صاحبتها من أول رحلة قمنا بها. يغمرني الذنب من جديد بأنني الذي أنهيت رحلاتها في هذه الدنيا فأتنحنح

وأنـا أحـاول كبت دموعي؛ كي لا أؤجج أحزان الجالسـة إلـى جواري.. لم تنجح محاولاتي، فتتنبه نور إلى بكائي فتتمتم:

- أظنها في مكان أفضل... اطمئن..

يعود إلى مخيلتي من جديد أنها في مخزن البضائع، وفي طريقها إلى قبر سـرعان ما سـتتحول فيه إلى تراب، بعد أن يأتي على جسـدها الخامد دودًا. تصيبنـي تخيلاتي بالذعـر لمآلها، فأهرب من سـوداوية أفكاري باسـتجداء لوجههـا باسـمًا فـي موقـف أو آخـر مررنا بـه، فأراهـا فرحة مستبشـرة يوم تخرج سـامي، و ليلـة فرح نور أو في حفل من الحفـلات التي طالما برعت فـي تنظيمهـا، تجمع فيه كل ذي شـأن مـن علية مجتمع تلألأت هي وسـط نجومه.. خَدَّاعٌ هو الموت في اختياراته ومباغت في توقيتاته، يلتقط من بيننا الأكثر تشـبثًا بالحياة ليترك من بعدهم من تجاوزوا عن وجوده، وتناسـوا أنه كامن في انتظار الجميع فى أخر الرحلة التي نتصارع من أجل الاستمتاع بها. وكلما التهينا في دنيانا، ازدادت أريحية ملاك الموت في انتقاء أكثرنا احتفاءً بالحياة.. أميل على نور وأهمس في أذنها:

- أوحشتني..

- وأوحشتني كذلك... وحشة لن يداويها هذه المرة أمل رؤياها ثانيةً..

أطـال زمن الطيـران أحزاني وظللنـا صامتين.. أظن نـور أيضًا تجتر من عبـق ذكريات أمها القابعة جثة في قعر الطائرة.. حين شـارفنا على الوصول ظهـرت المضيفـة من جديد، تعرض علينا الشـراء من السـوق الحرة. لعلها كانت ابتسامتي الأولى التي تراها وأنا أتفكر:

- لو أن ماجدة هنا لاشترت نصف ما تعرضين.

***

أعدل من جلستي على الدكة الخشبية بالقاعة، التي تضمنا، وأنظر صوبها:

- أتدرين يا نانسي ما أؤمن به؟

تنظر إليَّ منتظرة وموقنة أنني على وشك إتحافها بحكمة مغموسة بالدنيوية:

- كل شيء حولنا سلعة... كله معروض للشراء والبيع..

يشجيني ذهولها، أو لعله امتعاضها من كم المادية في مقولتي، فأستزيد:

- أسهل تجارة وجدتها وأجدتها هي تجارة النفوس..

ثم أزداد في استعراض حكمتي:

- البني آدم مستعد ومُعد لذلك.. فقط ينتظر التقييم المناسب ليستجيب..

تنظر إليَّ عاتبة، أو لعلها مُستحية أن تذكِّرني بأن رؤيتي تلك لم تفلح معها، فأسارع ضاحكًا:

- حسنًا! أنت رفضتِ الصفقة التي عرضتها عليك... ولكنني وقتها آثرت ألا أرفع الثمن حتى لا أزيد من حيرتك..

أسكت برهة وأعود:

- أنتِ وسارة لم أجد حاجة لأن تكونا صفقات... كان الحب فقط سبيلي معكما..

مازالت نور تتحدث مع الصهباء المتأنقة وبجوارهن ذو البدلة الفخمة، والآخر ذو البسمة المقيتة. تؤرقني ابتسامته، وتنشِّط في ذهني طنينًا من رتابته، أحسبه مرتبطًا به:

- أجمل ما في الموضوع أن مالك هو الذي اشترى لي انتقامي منك!

أتحاشى انشغالي به، فأعود إلى نانسي:

- أوحشتني جدتك يا نانسي.. لحظة دخولي البيت بعد دفنها، ضاقت عليّ حوائطه معترضة على عودتي دونها. أصعب ما قاسيته أن كل ما بالمكان به عبقها، وما من ركن إلا وحمل لمسة لها.. أيام تلو الأخرى، لم أستطع فيها إلا أن تميد بي ذكرياتنا معًا حتى أنني لا أذكر أي حديث دار مع نور وقتها.. سرعان ما دفنت عمتك أحزانها بأن أغرقت نفسها في خضم الأعمال، ولم أستطع أن أحذو حذوها.. لم أدر إن كان حزنًا أم تأنيبا الذي أبى ألا يفارقني، ولكنني كلما شرعت أن أتفاداه، ما يلبث أن يغمرني من جديد.. قررت الهروب من المكان لعل الأحزان ترفض مغادرته معي فحزمت حقيبة صغيرة، وأمرت السائق بأن يتوجه إلى شقة جاردن سيتي.

أنظر إلى الحفيدة، فأجدها مندهشة:

- تستغربين وجهتي؟ أنا أيضًا استغربتها، ولكنني كنت قد احتفظت بها، بعد انفصالي عن سارة، وظننت أن أجواءها وذكرياتي بها كفيلة أن تنتشلني ولو لبرهة، من بؤس البيت من غير ماجدة.

هذه المرة حين فتحت باب الشقة، ظننت أن أيام سارة هي التي ستسيطر على الأجواء.. خطوت إلى الداخل ولديَّ شعور بأنها - بالتأكيد - ستظهر مستبشرة بمجيئي، كما اعتدت منها أيام زواجنا. حجبت من ذهني تمامًا أننا افترقنا وأنها غادرت الشقة من يومها، وانتقلت إلى شقتها الصغيرة بوسط البلد. فطالما قالت لي ونحن معًا:

- حين نكبر في السن، أريد أن أعيش معك في شقة حجرة واحدة في عمارة قديمة بوسط البلد... ذات سقف عالٍ وحوائطه ضيقة تحتضننا حتى تكاد تعتصرنا..

ومع الصورة الذهنية التي ترسمها للمكان الذي سيشهد شيخوختنا، تجلجل ضحكة سارة عالية وهي تقول:

- حتى لا يحتاج أحدنا إلى أن يمشي مسافات ليجد الآخر..

ثم تعود جادة:

- شقة جاردن سيتي بيت أبي... يومًا من الأيام، أريد أن يكون لي بيتي معك... بيتي أنا..

ظننت أنني هارب من فراق ماجدة إلى شوقي لسارة، فوجدتني أجابه مذاقًا بمرارة مختلفة قدر اختلاف حلاوة نكهة حبي لكليهما.. لم يؤنسني تغيير المكان كما آملت، والأغرب أن طيف سارة انسحب وترك لماجدة سيطرة متواصلة عليَّ، وعندما جلست على مقعدي المعتاد، هممت أناجيها وأسألها عما يشغلني:

- هل علمتِ الآن حيث أنتِ أنني قد خنتك يومًا؟

أقسم لك يا نانسي أنني سمعت ضحكتها العالية، وتلاه صوتها جليًّا يرد عليّ:

- خانك ذكاؤك هذه المرة يا زوجي العزيز.. أتظن أنني احتجت أن أنتظر حتى تصعد روحي إلى هنا كي أعرف.

اختفت السخرية وغلفت نبراتها الجدية:

- نسيت أنني امرأة، والأهم أنك نسيت أنني امرأتك.. أنا التي تعرف متى وكيف تتنفس، فأنا أعرف مزاجك من تقلبك أثناء نومك.. ظننت أن الحياة المتخمة بالرفاهية التي أعيشها تتيح لك التخفي أو تفادي منظاري، الذي يتفحص كل خلجة تصدر عنك. إننا لا نراقب رجالنا بوازع عدم ثقة أو غيرة، بقدر ما هي إحدى أهم علامات حب واهتمام الأنثى بوليفها.. تعشقون أن تُعشقوا، ولكنكم تريدونه عشقًا بشروطكم. قمة الوله يا حبيبي أن تعرف امرأتك ما بك من لمسة أو كما قلت لك من تتابع أنفاسك للحظة.. قد لا أكون عارفة بأدق التفاصيل، ولكني أيقنت أنك في فترة معينة، فضلت حضن امرأة أخرى على حضني.

يتقدم أفكاري سؤال، سرعان ما يجيب عنه صوتها:

- لِمَ لم أواجهك؟ لأنني لو فعلت ذلك عندما دلني حدسي بأن هناك أخرى، لأعطيتك ميزة الاختيار.. لم أعرف من غريمتي ولم أحاول حتى لا تهتز ثقتي بك، ثقتي بأنك لابد وأن تعود إلى عريني.. إنها كرامة الأنثى التي بداخلي والتي رفضت أن أنزل هذا الموضع أو لنقل أن حكمتي النسوية هي التي أشارت عليّ بالصبر، وأنك في نزوة اشتراها لك ثراؤنا الجديد، وأنك لابد عائد إليَّ منها ولو بعد حين. هداني تفكيري وقتها إلى

أن خسارة الأولاد من غيابك أكبر وأهم من غيرتي.. والأهم من كل هذا كان قلبي الهائم، الذي لم يرد أن يتعرض لفقدان من أحب.. إنكم لا تدركون أن المـرأة في أقوى لحظاتها تحكمها نقـاط ضعفها.. لقد كان حبي لك مصدر قوتي ونقطة ضعفي وقت نزوتك..

أشعر بمسحة مرارة في نبراتها:

– لم أسـألك يومًا لِمَ عدت... لم أرد أن أعرِّض نفسي لإيلام أنني كنت البديـل، لا الاختيـار، إن كانت هي التي أعرضت عنك... لعلي أعرف منهم هنا الآن حقيقة ما جرى!

– ولـم أسـألك لـم بقيتِ؟؟؟ لم أظن بك يومًا أنك تحملتي الخيانة، كي لا تفارقي الترف!

يحتد صوتها وكأني لمست وترًا موجعًا عندها:

– وقوفـي إلى جانبـك هو ما أوصلك إلى ما أنت فيـه!... هذا الغنى لي فيه مثلك بالضبط!!!

لم أجد على وجه نانسي اندهاشًا من رد جدتها، بل لعل قسماتها عبرت عن تفهم لما يعجز عن اسـتيعابه الرجال، فيما يخص عقول النساء. أراحني أنهـا لـم تلمني أو تنظـر إليَّ نظرة من خـان ولكني كنت أعلم السـؤال الذي تخجل أن تباشرني به:

– عدت إلى سارة؟

نـنقـم على النسـيان ونعتبره مرضًا، وهـو النعمة التي تـداوي جروحًا لو تُركت، لما فارقتنا الكوابيس. مرت الأوقات وبدأت الحياة بعد ماجدة تتخذ

طبيعتها، وحل ببطء واستحياء اعتياد غيابها.. انغمست في الأعمال، فكادت أيامي تنقضي بأكملها ما بين تعاقدات جديدة وأرقام حسابات متخمة، تزداد ترهلًا مع كل صفقة نبرمها ونهنئ أنفسنا بنجاحها. لم أنسَ الراحلة، ولكنها فيما يبدو اختارت أن تنزوي بهدوء في إحدى ثنايا الذاكرة، تطل على فترات يزداد تباعدها مع مرور الوقت. تبادل الحزن والوحشة مكانيهما، مع وحدة شرسة لم يستطع عالم الأعمال أن يردها. لم تكن هذه الوحدة تفارقني إلا مع مكالماتي لسارة التي لم تنقطع منذ الفراق، وإن استحت في تكرارها. وفي غياب ماجدة ازدادت المكالمات، وتحولت إلى عادات شبه مقدسة، لها مواعيدها وطقوسها التي لا تتغير ولا تتأجل، تحت أي ظرف.. أصبحت النغم الذي أصحو عليه صباحًا، ولا أخلد إلى نومي ليلًا، إلا بعد أن أتناول جرعتي من رقتها. انسحب الصمت المهذب الذي ساد أحاديثنا بعد افتراقنا، وعاد الاهتمام يزيد تعلقنا، واشتعلت من جديد جذوة الحب التي لم تنطفئ يومًا.

- أو هكذا ظننت يا نانسي! لقد اتضح أن جدك محدود الذكاء فيما يخص النساء..

الضحكة في عين حفيدتي جعلتني باسمًا:

- شفرة عقل المرأة تستعصي على العباقرة يا صغيرتي!

يوم وافقت سارة أن نتقابل على العشاء، كنت أنا كالعريس يوم زفافه.. تضحكين وأنا أقول لك أنني لم أذهب إلى العمل يومها استعدادًا للقاء.. انقضى الصباح وأنا كالمراهق الحائر في اختيار ما سيرتديه في أول نزهة مع حبيبته، وأذكر أنني استحممت حين انتهيت من اختيار الملابس وحلقت

ذقني مرتين أو ثلاث، وامتدت الحيرة لاختيار العطر المناسب، وإن أنقذتني قارورة، احتفظت بما بقي فيها، كانت هي قد أهدتها إليَّ. في المطعم، أطلت علـيَّ بهية أنيقة كما عهدتها يغلفها ذلك الرونق المميز، الذي يجعلني أراها أميرة من عهد أسطوري لا مجرد امرأة أحبها.

طوال لقائنا، كنت أتحسس علبة التيفاني في جيبي؛ استمد منها ثقة وأطمئن الخاتم، الذي تضمه أنه عائد إلى صاحبته.. حين ظننت أن اللحظة قد حانت أخرجتها من جيبي، ووضعتها أمامها بثقة:

- ما رأيك؟

انتظرت تجاوبًا اعتقدته حتميًا وهي تمعن النظر في اللون التركواز، الذي عددته عنوان ارتباطنا قبل أن ترفع عينيها لتسألني:

- رأيي؟! في ماذا؟

تفصدت عرقًا، وتلعثمت قبل أن أهمهم:

- أن تكوني لي؟

- أكون لك أم نكون لبعضنا؟

حيَّرني السؤال وأضناني البحث عن إجابة مناسبة، عجزت ذكوريتي أن تمدني بها وأنا لا أجد فارقًا بين فرضياتها.. أدركت أن إجابتي أيًا كانت لن تكون مرضية فآثرت صمتًا.

- تريد عودة بعد أن أصبحت بلا حاجة لاختيار؟

لم أجد سوى الرومانسية مخرجًا:

- أحبك.

- لا أشك في ذلك ولكنك هنا الآن؛ لأن الظروف سمحت بذلك.. طلبك ليس لأنني اختيارك؛ وإنما طلبك لأنك أصبحت حرًّا دون تدخل منك..

- إن كنت متيقنة من حبي، وأعلم أنك تحبينني، فما تقولين لا يهم..

- الحب له جوانب كثيرة، أهمها عندي أن أشعر بأنني اختيار، لا بديل متوافر..

- دائمًا كنت اختياري... لم أحب مثلما أحببتك..

- الكلام سهل ومعسوله جميل بالتأكيد، ولكن يوم طلبت منك الاختيار، جاءتني إجابتك صريحة..

- ولكنك لم تطلبي مني اختيارًا، أنت من أصررت على الفراق!!

- المرأة حين تبغي اختيارًا وتضع نفسها موضعًا له، لا يمكن أن تصرح بذلك.. انتظرت منك اختياري بغض النظر عن دوافعي.

اجتهدت أن أجد منطقًا يريحها ويخفف من جَلْدِها المتوالي لي:

- ما قلته يومها ورفضي أن تكوني خاربة البيوت أمام المجتمع دفعاني إلى أن أقبل... أنت من طلبت..

- أنا من طلبت لأنني نشدت راحتي حين استمرأت أنت راحتك على حساب صورتي، التي تدعي أنك اخترت أن تحافظ عليها..

لا أعلم من أين لها هذه القوة، القوة نفسها التي جعلتني متيمًا بها:

- اسمع، أنا أحبك فعلًا ولكنني لم أصل من جديد إلى نقطة الرغبة في الارتباط بك. أحتاج وقتًا كي أثق في أنني لن أكون من تترك إن خُيِّرت..

- لا يوجد غيرك... لا أريد غيرك... أريدك معي..

ضحكت وبرقت عيناها:

- تريدني معك أم تريدنا معًا؟

سؤال آخر لها لم أجد له ردًّا، وإن لم تطل هي حيرتي فقد أعطتني الأمل مغلفًا:

- لندع الوقت يداوي ما يؤرقني، ويحيل مخاوفي إلى ترهات..

عادت العلبة التركواز الحائرة معي إلى البيت ليلتها، وأنا لا أستوعب أغلب ما حدث بيننا. علمت يومها قطعيًّا أنني أبعد ما يكون عن الفراسة والضلاعة فيما يخص النساء.. لم تنقطع مكالمتنا ومقابلاتنا، بل لعلها زادت. وتوثقت علاقتنا حتى غدونا أقرب مما كنا عليه وقت زواجنا.

* * *

يعود صرير باب القاعة من جديد ليقطع حديثي مع نانسي، وأنا أجد سامي يدخل، ومعه رجل قصير القامة ببدلة وصديري، كان من الواضح أنه قلما يغيرهما، وجهه لا ود فيه وعلامته المميزة أسنان بدأ اصفرارها يستحيل سوادًا. أكاد أقسم إنني أعرف ذلك القصير، ولكن يصعب عليّ تذكر أين التقيته. ألحظ إيماءة خفية من القصير إلى ذي الابتسامة السمجة،

يجتهـدان فـي تغطيتهـا، وكأنهمـا لا يبغيـان إعلانًـا للحاضريـن عن سـابق معرفتهما ببعضهما. مع دخول ابني، ينقطع الحديث الذي كان مسـتمرّا بين نـور والسـيدة الأنيقة، ويقف المتأنق الذي جاورهـم من فوره، وعلى وجهه علامـات تجهـم. يتوجه سـامي صوبـي، ولكنه ما يلبـث أن يتوقـف مترددًا ونظرته توحي بما يجيش بنفسه:

- هل أجيء إليك؟

يناديه صوتي الداخلي:

- تعال يا سامي.. أوحشتني!!

13

صمت محموم حلَّ وران على المكان من لحظة دخول سامي.. لم تعد هناك إلا أصوات أنفاس متتابعة فيما هو متسمر محله، يحسب كعادته جدوى تقدمه نحوي. يقطع أنفاس القلق باب القاعة حين يُفتح من جديد معلنًا دخول زائر، ذي مذاق مختلف هذه المرة. كان رث الثياب يستجير قميصه من كثرة الاستعمال، وبنطاله يسر إلى الناظر بأنه عطية من مقتدر.. ذقنه حليقة بموسي بليد، لم يتقن مهمته فترك الشعيرات متناثرة على تعضد وجهه من ملامح البؤس والكآبة، التي يبدو أنها سكنت وجهه بلا أمل فراق.. لم تمنعه ضآلة حجمه الضجة التي صاحبت دخوله من السيطرة على الأجواء. استمرار تقليبه الملعقة المعدن ورنين اصطدامها بزجاج الأكواب، التي يحملها ويدور بها على الواقفين أخذ من الصمت القلق سيطرته السابقة على المكان، وجعل الجميع ينظر صوبه.

النظرات التي حاصرته، امتزج فيها نوع من الاستهانة بصاحب الضوضاء، مع ترفع عما يعرضه، فقوبل بهزة رأس رافضة كلما اقترب من أحد الموجودين مقدمًا صينية الأكواب تجاهه. لم يستوقفه توالي الرفض، فاستمر في جولته بإصرارٍ حتى وصل إلى الرجل الأنيق الذي استوقفه على مسافة يده الممدودة. مرة أخرى، توقف المشهد لحظات والأنيق يضع يده في جيبه، ثم

يخرجها بورقة نقدية يسارع في دفنها في يد حامل الأكواب، وبه استنكاف أن تتلامس يداهما. يمعن الرجل النظر في الورقة، التي دست في يده، ثم يسارع بوضعها في جيبه، ولكنه لايلبث أن يخرجها من جديد وكأنه يتأكد من قيمتها، أو لعله غير مصدق أنه حصل عليها.. يضعها في جيبه ويعود أدراجه في اتجاه باب القاعة، مسارعًا فيما أظنه خوفًا أن يُطالب بإعادتها. لا تمنعه الهرولة من إخراج الورقة مرة أخيرة، والتحقق منها، قبل أن يصل إلى باب القاعة. ألحظ تغير قسماته من بؤس إلى بهجة، خانت بإشعاعها الكآبة، التي كان قد أحسن رسمها عند دخوله استجداء لنفحات من الحاضرين.

أغتبط، وأنا أهمس لنانسي إثباتًا لنقطة طالما اختلفنا فيها:

- المال يشتري السعادة..

دخول وخروج الرجل وخطفه أضواء المشهد شجعا سامي فيما يبدو على استكمال مشواره نحوي، بعد أن توجهت الأنظار إلى غيره.. وجدته واقفا إلى جانبي وإن ظل على شيء من التردد. شعرت أنه يعاني من صراع، سرعان ما تغلبت فيه مشاعره، فمد يده يربت على كتفي. بالتلقائية نفسها التي صارع هو من أجل إطلاقها، وجدتني أضع يدي فوق يده وأصرخ من داخلي دون أن يصدح صوتي:

- أوحشتني!!

* * *

ربتة سامي على كتفي وتلامس أيدينا أعادا التيار الغائب عن ذهني.. كأنما يده ضغطت زر إضاءة دماغي، فسطعت أنواره، وبدأ يترابط ما كان

مشـتتًا، وغدت المشـاهد المتناثـرة واضحـة.. البداية كانت بعد تشـخيص ريتشاردسون وتشديده عليَّ، قبل أن نغادر مكتبه:

- من المهم أن تبدأ في ترتيب كل أمورك..

- أموري؟

- الماليـة وغيرهـا لأن الوقـت سـيجيء سـريعًا، حيـن لـن تتمكـن من ذلك..

بطريقتـه الهادئـة ونبراتـه الباردة، أرجفنـي إخطاره بـأن لا أمل.. كم هو غريـب أمر البشـر، يشـتاقون لمعرفة المسـتقبل ويتمنون لو أنهـم يمتلكون بللـورة سـحرية تطلعهم علـى تفاصيله؛ ولو يدركـوا لعلموا أنهـم إن فعلوا ذلك، لوأدوا حوافزهم وقضوا على آمالهم.

- كما قال ريتشاردسون.. نحتاج إلى أن نبدأ في الترتيبات.

- لا تقلق يا سامي لن أترك شيئًا بلا تنظيم..

- أنا متأكد من أنك ستفعل ذلك، ولكن هناك موضوعًا أردت أن أعرضه عليك..

ثم مد يده إليَّ بكتيب ألوانه حية وصوره جميلة، فسألته:

- ما هذا؟

- تلال الأكاسيا..

قلبت في صفحات الكتيب الأنيقة، فشـدتني الصور اللامعة الخالية من الشـوائب.. فقط اسـترعى نظري أن الجمال كان علامـة خلفياتها، في حين

أن الوجـوه التـي في المقدمة، لم يكن بها مردود لمـا يحيط بها. خيط واحد تجمعت عليه تعبيرات وجوه كبار السـن، التي التقطتها الصور.. خيط دقيق خـالٍ مـن الحياة؛ إذ كانت نظراتهم شـاردة، تنظر إلـى اللانهاية دون هدف، أو لعلهم يستعجلون تلك النهاية.

- تريد أن ترميني هناك يا سامي؟!

- أرميـك؟! هـذه أفضـل دار رعايـة لحـالات ألزهايمـر والديمنتيا في إنجلترا، إنها أفضل رعاية ممكنة.

- رعاية في غربة من أغراب؟

سكت قليلًا، وحين ردَّ أدركت أن به شيئًا من حرج:

- ولكنـك لن تكون مدركًا أصلًا أنك في غربة أو وسـط أغراب.. هناك سيمرِّضونك كما يجب.. إنها أفضل رعاية يمكن شراؤها بالمال!

تبع كلماته سكون قلق؛ ثم مالبث أن ذكَّرني:

- طوال عمرك، كنت تؤكد علينا أن نشتري الأفضل بالمال..

- لا أريد أن أموت وحيدًا... لا أريد أن أموت بعيدًا عن بيتي!!

- سـأكون بجانبك، وسـأزورك وكذلك نـور... أنا أنصحـك بالأفضل لك..

ألقيت بالكتيب من يدي معلنًا انتهاء الحديث، ولكنه عاد:

- دائمًا ما تدخلت في حياتنا، لا بالنصح، بل بفعل ما ارتأيته في صالحنا، حتى لو لـم نستسغه... اسمح لنا الآن أن نرعاك كما نراه أفضل لك..

تضاربت مشاعري وأفكاري، وأنا أسمعه.. جعلتني كلماته أوقن أن سبب اختلافاتي معه، هو تشابه تركيبتنا وتطابقنا. تفكَّرت: هل كان يريد مصلحتي فعلًا أم أنه يبطن انتقامًا ورد صاع، لم ينسه لي يومًا.. سيطرت عليَّ فكرة أن أحكي له أنني كنت سببًا في السعادة التي انتهى إليها. أردت أن أحكي له - تفصيلًا - ما فعلت وكيف اشتريت راحته من أجله بالمال، الذي طالما حقر من طرق استخدامي له.

تذكرين يا نانسي فترة إقامتك في أستراليا مع أمك؟ أم أنك كنت أصغر من أن تُحفر تلك الأيام في ذاكرتك؟ أتدرين لِمَ لم تطول بكم تلك الهجرة؟ سأحكي لك ما فعلت؛ كي ألم شمل أمك وأبيك، ولتعرفي مهارة جدك حين يزمع على شيء.. لم تكن ليزا العنيدة والعاشقة بكبرياء لتعود أدراجها، مهما عرضتُ عليها من أموال طائلة، ولكنني كنت أعرف عنها شيئين: حبها الشديد لك ولعملها ولم أكن متأكدًا من أن علاقتها بسامي أصبحت في مقدمة دوافعها، ولكنني كنت موقنًا بأن ما فيه مصلحتك إذا جاءها مغلفًا بتقدمها في حرفتها، لم تكن لترفضه.

حين دخلت مكتب المحاماة الفخم في لندن لأقابل مديره، كان الغرض المعلن أن أحد كبار رجال الأعمال المصريين يبحث عن مكتب محاماة عالمي؛ ليتولى شئونه الدولية.. وقد كان استقبالهم وترحابهم لي يومها ترجمة لما ينتظرون أن يجنوه من أتعاب إذا تعاقدت معهم.. لم يعرفوا أنني اتخذت قراري بصددهم قبل المقابلة، وإن كنت قد أطلت في المفاوضة معهم، فذلك كان بهدف ألا يغالوا في مطالبهم، وحين ظنوا أنني انتهيت، طلبت الانفراد برئيسهم وأطلعته على شرط إضافي أردته:

- هناك محامية إنجليزية ممتازة انتقلت إلى أستراليا منذ فترة، فإن أردت تولـي أعمالي فعليك أن تعرض عليهـا الانضمام إلى مكتبكم. بوظيفة وأجر، لا تستطيع أن ترفضهمـا. وسـأدفع لك أي زيـادة عن المعهود فـي مرتبها قد تحتاجها لإقناعها. وهناك شـرطان، يجـب أن تلتزم بهما من جانبك: أولهما، أنها لن تعرف أبدًا أنني وراء ذلك، وثانيهما ألا تكون لها أي صلة بأعمالي في مكتبكم..

لم يحتج الرجل وقتًا للتفكير، وهو العالم بحجم الأموال التي سـيجنيها مـن ورائي؛ وهكذا عزيزتي عـدتِ أنت وليزا إلى لندن بعـد غياب لم يطل. وحيـن عدتمـا، حـدث المنطقـي - بقليـل من الجهـد - من طرف سـامي، فأصبحتـم أنت وأبواك تلك العائلة السـعيدة الناجحة، المسـتمتعة بسـكنى ضواحي مدينة الضباب.. الأهم أن «سـامي»، لم يعرف بدوري في عودتكم فقـد خفت إن عرف ألا يتم ما خططت له، ففضلت أن يظل حانقًا عليَّ؛ لأنه لم يعترف يومًا أنني أُحسن التدبير. هل صدقتِني حين أقول إن المال يشتري السعادة؟ أو حين أقول لك: المال على أقل تقدير أحد أهم وسائل السعادة! يومًـا ما سـيصدقني أبوكِ أيضـا وإن كنت أخالـه مؤمنًا بذلـك، ولكن عناده يمنعه من الاعتراف لي بصحة مرماي.. العناد نفسـه الذي ركبه يوم عرضت عليك الانضمام إلينا.

- لا تتدخل في حياة ابنتي... كفاك!

- أتدخـل؟ حيـن أعرض على نانسـي مـا فيـه مصلحتها تعتبـره تدخلًا يا سامي؟!

- هي أدرى بمصلحتها.. لا تريد أن تكون جزءًا من أعمالك، وأنا لا أريدها أن تقع في فخ سيطرتك!!

- عرضت عليها أكثر بكثير مما يحلم به أو يطوله من في سنها.. تنضم إلينا وتتعلم إدارة ما سيؤول إليها يومًا؛ أليس ذلك أفضل من حياة الرحالة التي تعيشها، تسافر من بلد منكوب إلى آخر أكثر نكبة!!

- تؤدي عملًا إنسانيًا وتغيث من تقع بهم كارثة..

- أو ليس من الأفضل أن تعمل في إرثها! تستطيع التبرع كيفما ووقتما تشاء لهؤلاء.. ففي النهاية المال هو يغيثهم؛ والمنطقي أن تكون هي مصدره بدلًا من أن تتسوله!!

- هل التبرعات عندك اسمها تسول؟!

- تبرعات، «معونات».. كلها مرادفات تجمل الأصل: التسول!

- دعها تعش حياتها كما تختار... لا تتدخل..

- هي حرة ولم أتخط حدودي بعرضي هذا! لا تحاضرني أنت عن مرفهين دنيانا الذين يرعون الأقل حظًّا من باب الوجاهة؛ أو لعلها هواية يضجرون منها بعد حين..

***

الترتيبات التي نصحني بها ريتشاردسون أوجبت كثيرًا من المداولات والزيارات الطويلة إلى مكاتب المحامين في لندن والقاهرة.. حفزتني دموع نور، يوم أسندت رأسها على صدري، وتنهدت:

- أخاف الوحدة التي ستتركني لها..

دمعت وأنا أتصور الوحدة الموحشة التي ستجعلها الديمنتيا مآلي قبل أن أطمئنها:

- لن تكوني وحيدة.. أعدك..

قدمت علاج وحدتها على مداوة ما خشيته، من وحشة سيفرضها عليّ المرض.. احتجت إلى التأكد منها قبل أن أشرع في مخططي فجاءت إجابتها قاطعة:

- نعم؛ مازلت أحبه!!

استدعيته إلى مكتبي، وأنا أعلم أنه سيأتي صاغرًا دون احتمال - ولو ضئيل - بأن يرفض مقابلة من أذله يومًا.. كنت متأكدا أن تركيبته لن تصغي لكبريائه وأنه لن يستطيع مقاومة إغراء ما سيعرض عليه، حتى لو جاءه من ألد أعدائه. وقبل أن أسمح للسكرتيرة بإدخاله، أمسكت الملف أراجعه، وكأي صفقة أزمع إبرامها، كان لابد أن أكون ملمًّا بكل المعلومات والبيانات المرتبطة بها. ولخصت لي قراءة أخيرة قبل المقابلة الحال التي وصل إليها: مازال متزوجًا دون إنجاب، بدد أغلب الثروة الصغيرة التي ورثها من أهله بين مشاريع خاسرة، وأسلوب حياة شديد البذخ لا يناسب وضعه المادي، وإن كان يرضي ولعه بالمظاهر.

- أعرض عليك نصف مليون دولار سنويًّا!!

- مقابل؟!

- ستطلب من نور العودة إليها، وفي مقابل هذا سيدخل حسابك نصف مليون دولار سنويًّا.

في عالم الأعمال وفي الصفقات طويلة المدى، من المهم أن يكون الرقم الذي تعرضه كافيًا لإسعاد الطرف الآخر دون أن يشبعه.. تمامًا كما نربي الكلب.. نطعمه بالقدر الذي يجعله ينفذ أوامرنا، ونحتاط ألا يعقرنا.. لم أنتظر منه ردًّا وبدأت أملي عليه شروط الصفقة:

- أولًا ستطلق زوجتك الحالية... نور لن تكون لها ضرة، وهناك تعليمات لدى المحامي الخاص بي في لندن بأن يحول المبلغ نهاية كل عام، بمجرد أن تقدم له إثباتًا رسميًّا بأنك لم تتزوج من أخرى..

أظنه كان قد بدأ في حساب كيف سيتمتع بالمبلغ السنوي، الذي سيجنيه:

- وضمانًا لأنك ستبذل قصارى جهدك لإسعادها، فالعصمة ستكون بيدها... طبعًا إن طلقتك نور، يلغى الاتفاق تلقائيًّا..

تستغربين أنني أعرف ما أعرف عنه، ومع هذا أقدمت على عرضي.. لقد كان دافعي الأول أنه رغم خسته، كان مراد نور وحبها الذي لم تتخطاه، كما أن معرفتي بتركيبة أمثاله وأنا من قابل كثيرًا منهم، إشارات إلى أنه سينصاع ولن يقامر مرة أخرى بأن يخسرها.. الأهم كانت ثقتي في أن ابنتي لن يخونها عقلها، ولن تنقاد وراء عواطفها إن عبث أو لجأ إلى خداع أو مراوغة..

حذرته من جديد:

- لم أحكِ لنور قصة طلاقكم الأولى، ولا دناءتك حينها، وأنصحك أن تستمر في كتمان ذلك، وكذلك اتفاقنا الحالي... لأنها ستتركك إن عرفت... أو لعلي أحذرك مما يهمك أكثر: ستفقد النصف مليون دولار السنوية!

ذهوله ووجومه مكناني من أن أفرغ الشحنة التي بصدري:

- للأسف، نور مازالت تحبك... لا أعرف ما الذى تجده فيك ولا أدري إن كنت أخطأت حين لم أطلعها على رعونة مفاوضاتك السابقة... المهم الآن بالنسبة لي أن تحصل هي على ما تحب..

منعت نفسي من أن تتعاطف معه، واخترت قبول قوله وإن لم أثق في صدقه حين أعلن على استحياء:

- سأقبل لأنني مازلت أحب نور، لا من أجل مالك فقط!

عادتي وأنا أبرم الصفقات أن أدعي للطرف الآخر أنني معطيه وقتًا للتفكير والتدقيق في تفاصيله، ولكن معه لم يكن هناك داعٍ لذلك. أراحتني سرعة استجابته.. وللحظات، أثناء جلستنا شعرت أنه مازال يحب نور فعلًا، حتى أنني ظننت وقتها أن حبه لها، كان جزءًا من أسباب إقدامه. كانت تعليماتي الأخيرة له:

- هذه تذكرة سفر إلى لندن، وعندك ميعاد آخر الأسبوع مع المحامي، هناك.. ستوقع معه العقود وتعود لتبدأ في التنفيذ.. وهذا شيك مقبول الدفع باسم زوجتك الثانية تعويضًا لها عن نذالتك... لا أحب أن أظلم أحدًا.

قبل أن يخرج استزدته:

- رغم عيوبك، فإنني أقدر فيك أن أولوياتك واضحة وثمنك معروف!

لـو عرفـت نور مـا فعلت يومًا، فلـن تغفر لي أبـدًا.. لـم أسـتطع فعلًا أن أتفهم لِمَ تحبها، ولكن هكذا هي القلوب.. متوحشـة لا قبل لنا أن نطوِّعها، ولـذا نحبسـها في أقفـاص صدورنا.. حيـن أقدمت على تلـك الصفقة التي بطعـم العلقـم، دفعني إلى ذلك أن الوقت لم يكن ليسـمح بالبحث عن آخر يسـعدها. الشـيء الوحيد الذي خفف من مرارة ما تجرعت من عودته إليها، أصبح يقيني من سعادتها به ومعه، حين يعلن ذهني العصيان وينسحب.

* * *

في اليوم ذاته الذي قبل فيه عرض زواجه من نور، أنجزت بقية الترتيبات، التـي نصحوني أن أسـارع بالقيام بها يوم تشـخيصي في لنـدن.. تعمدت أن يكـون لقائي بالأسـتاذ عادل المحامي، بمكتبه بوسـط البلـد، وهو من اعتاد أن تكـون لقاءاتنا بمكتبي.. لم أطل في المقدمات وبدأت من فوري إعطاءه تعليماتي:

- نصف أسهم الشركة ستنتقل إلى نور..

اندهشت من استغراب من أصبح صديقًا من طول فترة معرفتنا:

- أنت بالذات لا يجب أن تندهش.. من بدايتي وأنت معي، وتعلم تمامًا كيف ضاعفت نور حجم الأعمال، بل لعلها سـاهمت بأكثر من ذلك. أليس من العدل أن تمتلك نصيبها مما ساهمت في تضخيمه؟!

لم يكتمل اقتناعه بما قلت فسألته:

- لـو لـم تكن نور ابنتي وكان لي شـريك آخر غريب، ألـم يكن ليمتلك نصيبًا في الشركات؟!

بدأ منطقي يصل إليه، فأنهيت الجدال:

- وأنا قدَّرت نصيب شريكتي نور بالنصف..

- بقية الممتلكات بما فيها النصف الباقي من الشركات، سيقسم مناصفة بين سامي ونور..

قاطعني:

- مناصفة؟! ولكن هذا ضد الشرع!

- هذا العدل الذي أراه.. لا فرق عندي بين نور وسامي، فالاثنان أبنائي.. في عالمنا ندعي أننا نساوي بين الابن والابنة قولًا، لا فعلًا.

كان يحاول مناقشتي في مبادئ، طالما آمنت بها، ووصلت فيها من زمن إلى قناعات راسخة:

- ثم لماذا تقول إنه ضد الشرع؛ الشرع يجيز لي توزيع ما أملك وأنا حي!

الحزم والقطع في ردِّي لم يترك مجالًا للمناقشة، فأنهيت اللقاء بآخر تعليماتي:

- أريد إنشاء صندوق خيري تلتزم شركاتي بالتبرع له بنسبة سنوية من أرباحها، وتتولى رئاسته نانسي بنت سامي.

ثم أضفت:

- أمر أخير يا عادل: سنجنب مبلغًا من الأموال السائلة، ليكون تحت إمرة شخص سأخطرك باسمه لاحقًا..

قبل أن أغادر مكتب المحامي، طلبت منه أن يسلم لنور - حين تبدأ شمسي في الأفول - رسالة كتبتها، أوصيها فيها بأنها إذا لم تنجب تترك ثروتها من بعدها لابنة أخيها.. أكدت عليه مرة أخرى أن أي ترتيبات أخرى، سأثق في قدرة سامي ونور في الاتفاق عليها، دون مشكلات ولما فيه المصلحة.

* * *

حين تركته ونزلت من مكتبه تركت السائق وسيارتي مكانهما، وفضَّلت أن أمشي إلى محطتي التالية. مرة أخرى - كما أصبحت عادتي - اختلطت المشاعر بداخلي.. لديَّ شعور بفقد كل ما أملك وإن كان فقدًا لصالح أعز من أملك؛ ولديَّ مزيج سعادة عطاء شابها رغمًا عني شجن تنازلي، عما قضيت عمري أكنزه. مع خطواتي صوب وجهتي، سيطر عليّ هاجس أن الدنيا إنما تجزل عطاءنا لتعود وتجد ما تأخذه منا.. كم ترددت خطواتي، وضَعف عزمي، وأنا في طريقي، حين خشيت أن يجاب مطلبي من باب الشفقة. ولكن لم يكن لكرامتي وكبريائي مكان، بعد أن بدأت عقارب الساعة في ركض محموم، نحو توقف محتوم.

دقائق، وكنت قد وصلت إلى وجهتي.. بهو العمارة على قِدَمه حفظ له الرخام الإيطالي رونقه، الذي لم يخسر معركته مع الزمن، فظل على لمعة، منعها من الاندثار البواب النوبي الذي يتصدر مدخل البناية. مهابة منظري منعته من سؤالي عن سبب زياراتي، فلم يستوقفني، وأنا أطوي درجات السلم إلى الدور الأول.. قرعت جرس الباب دون توقف، وسمعت خطواتها مسرعة من ورائه لتفتح لي.. تزايدت واستقوت نبضات قلبي وأنا

في انتظار فتحها للباب. تعجلت ارتمائي في حضنها، ومرت مشاهد حبنا في تتابع مدهش أمام عينيَّ.. حين رأتني واقفًا أمامها وجلت، فأسرعت متهدجًا:

- لم يعد هناك وقت!

لم تفهم، فأردفت قائلًا:

- أريدنا معًا..

ثم تكلم قلبي:

- أريد أن يكون وجهك أخر ما أطالعه في هذه الدنيا، قبل أن أغرق في النسيان.. أرجوكِ دعي لمستك تكون أخر ما أشعر به قبل أن تودعني القدرة على الإحساس..

لم تقدر على بكائي فبكت هي الأخرى، وهي تستمع مني إلى تفاصيل نهايتي التي لا فرار منها. مع كل لمسة حانية من يديها، غلبتني طمأنينة وجودي إلى جانبها، واعترتني طمأنينة التصاقي بمن أعشق.. استمرأت أحضانها التي طال اشتياقي إليها وانمحى أي وجل من دقات قلبي، التي تحولت إلى إيقاع رقصة مبتهجة بقرب حبيبتي. لم يعد يقلقني إن كان سبب قبولها شفقة أم رغبة؛ فالحب يضم كل تلك المشاعر تحت رايته.. يومها، خرج خاتم التيفاني من علبته التركواز ليتوج إصبع ملكته، الذي غاب عنه سنين.. لم يزل همسها نغمًا رقيقًا، أستعيده في وحشتي، وصوتها يداعب أذناي وينسيني الآمي وهي تعلنني:

- أحبك..

14

سحب سامي يده من على كتفي فانقطع التيار الواصل من جديد، وعمت العتمة من جديد دهاليز ذهني.. إليه، اتجهت نور ترافقها ذات الشعر الأحمر، فيما تحرك هو نحوهما فتقابلا في منتصف القاعة:

- معقول أن ننتهي في المحاكم..

- المحاكم دورها أن تقضي بيننا؛ لا عيب في ذلك... أنا راض بما سيقضي به القاضي... ولن تؤثر وقفتنا تلك في أنك أختي وأنني أخوك!!

- الأجدر بالأخ والأخت أن يحلا مشكلاتهم، دون إشراك دخلاء بينهم..

أشار سامي إلى الواقفة بجانب نور ممتعضًا:

- أرى دخلاء إلى جانبك!!

- لست دخيلة؛ أنا زوجة أبيك..

- القانون يقول غير ذلك!!

- سنرى ما يقول القانون... أتظنه كان سيرضى بما تفعل!

- دائمًا فعل ما ظنه الصحيح دون النظر للشكليات... أنا أحذو حذوه..

استمر حديثهما وأنا أسمع جملهم المتتالية، فلا أميزها ولا أفهم مغزاها.. أشعر أن نقاشهما يحتد وإن حرصوا على خفض أصواتهم، وهم يتلفتون ناحيتي ما بين العبارات.. وقع أصواتهم صار كطلقات مشحونة بالحنق والغيظ.. أطيل النظر نحو الصهباء، وبهدوء أغلق مقلتي فيداعبني مشهد استمرأ ومضات منه.. مقاطع قصيرة تطارد بعضها البعض على شاشة عرض عقلي، بطلتها شعرها أحمر داكن وعلى وجنتيها نمش ينتصر لجمالها في معركته ضد الزمن. لم تكن وحدها في المشاهد التي ملأت مخيلتي، إذ كنت حاضرًا إلى جانبها. تبطئ المشاهد تتابعها ويخطف نظري بـرواز فضي داكن، يحتضن صورة تضمنا معًا على خلفية شتاء أوروبي.. صورة بها علامات الزمن ولكنها تنضح حياة وسعادة ودفئًا، تغطي برودة الجليد من خلفنا. ثم يبدأ ما أراه يتسلسل فأجدنا نشاهد فيلمًا أجنبيًّا مفعمًا بالحميمية، حين مدت بطلته يدها لتحتضن كف البطل.. تسللت أصابعي تداعب ظهر يد رفيقتي قبل أن أحتوي كفها الصغير..

سبقنا مشاهد الفيلم، فقفزنا إلى قبلة أولى في خفة حبات المطر، التي نظرت إلينا من خلف النافذة مع انهمارها المستمر.. أمتص رحيق شفتيها، قبلة تلو الأخرى، فلا أستطيع إلا استمرارًا في النهل من فمها. مع كل حركة وكل لمسة، نزداد تناغمًا على خلفية لحن تعزفه نبضات قلبينا المتسارعة. انساب فيض الشبق في عروقي فجعل ذاكرة الرغبة تركل تشخيصات الأطباء وتتحداهم؛ لأبدأ - وبعد طول غياب - في الإحساس برجولة كنت أظنها راحت في سبات إلى غير رجعة. لم تكن بنا عجالة، بل لعل كلانا عمد إلى

إطالة أمد ما نحن فيه. لا تكاد حاسة من حواسي تبدأ في الاستمتاع، حتى تزاحمها حاسة أخرى رافعة سقف المتعة، ولم تجد يداي في أي موضع لمسته تجاعيد الزمن، بل ملمسًا بللوريًّا أملس خاليًا من الشوائب لم أستطع معه إلا الاستمرار بشغف في استكشاف تضاريس جسدها الرائع.

حين أستعيد تلك اللحظات تمتلئ أنفي بروائح جسمها المتصاعدة من سخونة تمازجنا. كانت أنفاسها الدافئة تلهب وجهي وأنا لا أقدر إلا على السعي من أجل قبلة جديدة، إن لم تكن لشفتيها فلذلك الجزء الذي يتكشف بتروٍّ من جسدها النابض بين أحضاني.. كل قطعة ملابس خلعتها عنها، كأنما ستار يسبر وراءه قطعة فنية بديعة كان كشفها يجعل قبلاتنا ساخنة منهمرة كمراهقَيْن، يختلسانها ويختبرانها للمرة الأولى. استمررت أو استمرأت استكشاف وورود الجسد، الذي طالما خلبني، والذي تمكنت - بمعاونة عيوني العاشقة - من أن استمرَّ في رؤيته على نضارة بنت العشرين.

لم يكن لما نحن فيه علاقة بالسن ولا بحال الجسد، إذ أظننا غشيتنا حالة ذهنية، ارتقت بجسدينا وتمكنت من خلايا ذاكرتينا، فأعادت برمجتهما إلى أحوال مطلع الشباب.. تأوهات سارة وأناتها الخفيضة أججت رغبتي وأعادت لجسدي عنفواناً طال غيابه. لم تكن لدي رغبة في الانتهاء ولا تخوف من عدم قدرة على الإنهاء، فقد عرفت أني أرتشف من ينبوع الشباب المقوى بأكاسير الحياة.. ازداد ضمي لها، فتناغمت نبضاتها ونبضاتي وتزامنت أنفاسها وأنفاسي.. لم نعد جسدين، بل امتزجنا جسدًا واحدًا شريانه رغبة عارمة. تنسدل جفوني لأحفظ روعة اللحظة فتصبح لمساتي لها بصيرتي، وتستمر أذناي منصتتين إلى موسيقى غنجها؛ لأنتفض وتسري بي رعشة عذبة. كل مابها كان محفزًا، حتى بدأت هي في لثم

وجهـي ونزلت منه إلى رقبتي ومن بعدهـا غاصت في صدري، حتى صرت أنـا المتـأوه، وعلـت أناتـي متناغمة مـع إبداع عشـقها وتتابع لمس شـفتيها الرطبتين لجسـدي. كانت يداها تدغدغان ظهري أنة، ثم تصعدان متسللتين بيـن خصلات شـعري أنات أخـرى.. لم تعد يـداي تكتفـي بموضع واحد، فارتحلتا عبر جسدها لا تستطيعان اكتفاءً من نعومتها الملائكية.

فـي هـذه اللحظات أدركت أننـي لم أقع فـي حبها فقط، بـل كنت أيضًا غارقًـا فـي حب حبها.. نعم فقد كنت متيمًا بكل ما يحيط بهذا العشـق، بكل تفصيلة فيه تملكت عاطفتي، عبر سنين طوال، ترعرع فيه ولهي بها، وإن كان خفيًّا مخفيًّا أغلب الأوقات.. اسـتمرت عروقنا نافـرة وقلوبنا نابضة بانتظام وتسـارع، تطـل عليَّ مـن بين ثنايا الفـؤاد نبضات فرحة كنت قد نسـيت أنها ممكنـة.. أرفع رأسـي وأنظر إليها؛ لأسـتمتع بجمال الوجـه المرمري الذي أعشق قسماته، فما يلبث شبقي أن يستدعيني من جديد لأغتـرف من الجمال الـذي بيـن يديّ.. جسـدان أملسـان اختـارا ألا يكفا عـن العنـاقِ، فذابا في بعضهما على طريق رحلتهما نحو لحظة نشـوة توحدهما. ومن بين أنفاسها اللاهثة همست في أذني:

- أحبك..

***

يجبرني على فتح عيني صوت جهوري:

- تفضلوا... سيادة المستشار يريدكم في غرفة المداولة..

سـبقنا سـامي ومعـه القصيـر إلى بـاب القاعـة. تأبطتنـي نور مـن ناحية وارتحـت إلـى التصاق ذات النمـش الخفيف بي من الناحية الأخرى. سـار

الرجل الأنيق ومعه ذو الابتسامة المقيتة أمامنا، ونحن نطوي الطرقة الطويلة. لم يمر وقت طويل، قبل أن نجتمع كلنا من جديد داخل غرفة، اضيق هذه المرة عن سابقتها.. في صدرها جلس ثلاثة رجال متجاورين، وقد ارتسم على وجوههم كثير من الجدية. انقسم الجمع إلى قسمين: إلى يمين الجلوس سامي وصاحبه، وإلى اليسار توسطت نور وذات الشعر الأحمر التي جلس إلى جانبها الرجل الأنيق، وإن لم يرقني جلوس الآخر إلى جانب نور. بعد لحظات من جلوسنا رفع الرجل- الذي كان يتوسط الرجلين الآخرين أمامنا - رأسه وقال:

- كما أخبرتكم الجلسة الماضية، ولخصوصية موضوع القضية، فالمحكمة تفضل الاستماع إليكم هنا في غرفة المداولة..

صوته وطريقة كلامه كان بهما الكثير من الوقار.. سكت لحظات قبل أن يعود:

- المحكمة استمعت في الجلسة الماضية للسادة محاميّ الطرفين، كما أننا طالعنا المذكرات القانونية والتقارير الطبية، التي تم تقديمها من الطرفين. وعلى ذلك، قررت المحكمة اليوم أن تستمع فقط إلى أقوال وطلبات المدعين.. نريد أن نسمع منكم أنتم، لا من محاميكم، أسبابكم ودوافعكم لرفع هذه الدعاوى..

عاد السكون إلى المكان، رغم حدوث قليل من التململ بين الجالسين.. مرة أخرى قطع الرجل الصمت، حين نظر إلى اليمين موجهًا حديثه إلى سامي:

- تفضل يا دكتور..

قام سامي من مقعده وأحسست بارتباكه، قبل أن يبدأ حديثه.. لاحظت أن ثمة ورقة بيده، بدا وكأنه يقرأ منها ما كان بصدد قوله:

- سيادة القاضي، أرجو من سيادتكم التماس العذر لي إن لم أكن بالفصاحة المطلوبة في مثل هذه المواقف، ولكنني سأحاول أن أشرح بإيجاز أسباب رفعي الدعاوى المنظورة أمام محكمتكم الموقرة. كما تعلمون سيادتكم - ومن واقع التقارير الطبية التي تم تقديمها لكم - فوالدي يعاني من مرض الديمنتيا. وقد سبق أن صدر حكم باعتباري وصيًّا على أمواله. وحين بدأت مباشرة هذا الدور، وجدت أن في الفترة السابقة لوصايتي عليه، وبعد تشخيصه بالمرض، حدثت مجموعة من التعاملات المالية، بالذات فيما يخص توزيع ثروته. وبمراجعة هذه التعاملات، تبين لي أن أغلبها غير مطابق للأعراف والقوانين المنظمة للإرث وشرائعه. ولما كانت طبيعة المرض تؤثر - كما تعلمون سيادتكم - على قدراته العقلية وإدراكه أرتأيت أن أطلب من المحكمة اعتبار هذ المعاملات كأن لم تكن، والأمر بأن تكون أمواله كلها تحت وصايتي.

نظر إليه من كان سامي يوجه إليه الحديث، وسأله:

- ولماذا قام والدك بهذه التعاملات في ظنك أو من وجهة نظرك؟

- كما قلت لسيادتكم، وبحكم معرفتي بالعقلانية، التي عاش بها طوال حياته، أظن أنه كان تحت تأثير المرض ولم يكن مدركًا لأفعاله..

- وهل لديك طلبات أخرى يا دكتور؟

- أطلب من سيادتكم أيضًا تأييد حكم اعتباري الوصي على أمواله، ورفض الطلب المقدم من أختي السيدة نور بأن تكون هي الوصية عليه.. أنا ابنه الوحيد والقانون واضح في أن الوصاية عليه تؤول إليَّ.

أومأ محدثه إليه فجلس سامي، في حين وجه الرجل نظره وحديثه إلى نور:

- تفضلي يا أستاذة..

ربتت نور على يدي وهي تفك تأبطي لذراعها؛ لتقف أمام محدثها.. أحسست بتسارع أنفاسها قبل أن تبتلع ريقها، وتبدأ في الحديث:

- سيادة المستشار، يحاول أخي العزيز الدكتور سامي أن يوحي بأن غرضه من الدعوى هو تصحيح ما يدّعي أن أبي فعله وهو غير مدرك.. والحقيقة أن هذا غير صحيح، فالتقارير الطبية الدورية المقدمة من طرفنا تؤكد أنه رغم كون المرض تقدمياً، فإنه لا يؤثر على قدراته العقلية بشكل فوري وقت تشخيصه. وكما قرأتم في تقاريره المقدمة والموثقة - من أفضل أطباء العالم - فإن أبي كان قادرًا على قدرة اتخاذ قرارته في الفترة المشار إليها، دون أن يكون هناك تأثير مباشر لمرضه أو أعراضه.. الحقيقة المؤسفة حول طلب سامي هي رغبته الأكيدة في التحكم في مصير أبي؛ إذ إن لديه أفكارًا محددة يريد تنفيذها، فيما يخصه.. ومن هنا نما وازعه في طلب الوصاية.

- أستاذة نور لا أريد منك تصوراتك لنوايا الغير... حدثيني عن طلباتك فيما يخص الدعوى..

- للأسف، فإنا مضطرة أن أشرح لسيادتكم دوافع أخي حتى أصل إلى سبب طلبي.. أولًا لي تساؤل مهم: في الفترة نفسها التي يطالب فيها أخي

بإلغـاء تعاملات أبـي، قام الوالد بعمـل عدة صفقات حققـت أرباحًا أقل ما توصـف بـه بأنها طائلة، فهل يريـد إلغاء هذه الصفقات أيضـا؟ أم أن والدي كان مـدركًا حين أبرمها، ولم يكن كذلك حين وزّع ثروته؟ ثانيًا لقد أسـهب الأستاذ عادل المحامى - في الجلسة السابقة - في شرح منطق أبي من وراء معادلة تقسـيمه لأمواله، كما أريد أن أضيف فقط بأنني مَنْ عمل مع أبي في شـركاته طوال السـنين الماضية، في حين أن سـامي - باختياره - ابتعد عن أعمال العائلة ولم يسهم يومًا فيما يخص شركاتنا..

قاطعها سامي:

- وهل كان مطلوبًا مني كطبيب أن أعمل في التجارة؟

- دكتور سـامي، انتظر دورك في الكلام... لا أريد مقاطعات... تفضلي يا أستاذة نور، أكملي كلامك..

- سامي لا يعلم شيئًا عن أعمالنا، واعتباره الوصي على أموال أبي سيؤدي إلى انهيار تلك الأعمال دون شك. لكم سيادة المستشار أن تتصوروا تبعات هـذا علـى بيوت سـتنقطع مواردهـا وهبوط للأسـهم في البورصـة، ناهيك عما ما سـنتكبده كعائلة من خسـارة.. هذه واحدة، أما الأخرى والأهم فهي رغبتـه أو لنقـل قناعته بأن الأفضل لأبي أن نودعـه إحدى دور رعاية مرضى الديمنتيا.. سـيادة المستشـار، أريد أن أؤكد هنا أنني على اسـتعداد أن أرعى أبي في بيته؛ حيث عاش عمره دون شكوى أو تذمر من ناحيتي، وأطلب من المحكمة الموقرة، في حالة قبولها أن يكون سامي وصيًا على أبي، أن تمنعه من إيداعه مثل هذه الدور..

- دكتور سامي؛ ما موضوع دار الرعاية هذا؟

- سيادة القاضي، سأرد عليكم من منظورين: الأول هو كوني طبيبًا، ورغم عدم اختصاصي في هذه الحالات، فإنني أستطيع أن أقول لسيادتكم أن الأفضل لأبي - مع تقدم حالته - أن يكون في مثل هذه الدور؛ حيث الرعاية المتخصصة، التي تجعل أواخر أيامه دون ألم. دعنا نتفق أنه مهما كانت نوايا نور طيبة، فلن تستطيع أن توفر له ما توفره دار الرعاية. ومع تمكن الأعراض منه وزيادة حدتها، ستبدأ حالته الجسمانية - لا العقلية فقط - في التدهور، وسيحتاج إلى نوعيات من المباشرة الطبية، لا يمكن توفيرها في منزله.. هذا بالإضافة إلى أن وجوده في بيته سيصبح شيئًا لا يعيه ولا يضيف إليه. هذه للأسف من أعراض المرض، وما تعرفه نور أنه قريبًا لن يستطيع حتى التعرف عليها.. المنظور الثاني الذي أريد طرحه، هو أن أبي طالما اشترى الأفضل له ولنا - على الأقل في تصوره - بأمواله؛ فإذا اتفقنا أو اخترنا أفضل دور رعاية في العالم، فمن المؤكد أنه لو كان واعيًا لعزز اختيارنا.. إن المكان الذي أريده أن يقضي فيه ما تبقى له، هو الأفضل في العالم، فلمَ نحرمه منه وباستطاعتنا تحمل تكاليفه..

- آسفة للمقاطعة يا سيادة المستشار، ولكن المكان الذي يتكلم عنه سامي في إنجلترا، وليس في مصر. ومعنى ذلك أننا ننفيه بعيدًا عن أهله ومن يحبهم ويحبونه.. نتركه بين أجانب ليرعوه، ونحرمه من أي عواطف قد يحتاج إليها.

- مرة أخرى، تصر أختي على الأخذ بالعواطف، دون الارتكان إلى العلم.. أكرر لسيادتكم أنه لن تكون به قدرة على التعرف على أحد، وعليه لن تكون به المشاعر التي تشير إليها.. سيادة القاضي، دعني أسأل سؤالًا

بسيطًا: لو أن المرض الذي شُخص به أبي كان السرطان مثلًا؛ ألم نكن سنجوب به أحدث مراكز العلاج في العالم؟! ألم نكن سنستخدم أموالنا في توفير الأفضل له؟! ما الفارق إذًا؟! لماذا نتقاعس هنا عن وضعه في أفضل الأماكن له؟ ثم أن أختي بإمكانها زيارته وقتما شاءت، بل لعلها تقدر على الانتقال للعيش بجانبه إن كانت هذه رغبتها؛ فالمال ليس بعائق هنا، ثم إنني لم أصر على نقله، ومازال به وعي ومشاعر.. لقد تركته لدى أختي ترعاه، كما طلبت، رغم أنه كان بمقدوري إيداعه الدار من يوم توليته..

لاحظت أن الصهباء ترفع يدها على استحياء؛ ليلتفت إليها من توسط الجالسين أمامنا:

- تفضلي يا أستاذة..

- يا فندم، أنا زوجته، وأريد أن....

قاطعها القصير القابع بجوار سامي:

- طليقته!

- أنا زوجته يا سيادة المستشار، وقد قدمت للمحكمة قرار النائب العام الذي صدر منذ يومين، يؤكد أن قسيمة طلاقي منه تم تحريرها بموجب توكيل خاص مزور، وأنه لا يعتد بها..

هل كنت الوحيد الذي لاحظ تبادل النظرات بين صاحب الابتسامة السمجة وذي الأسنان السوداء، بينما الصهباء تتكلم؟ أتعجب كيف عادت إليَّ - وأنا أرقبهما - قدرتي على الملاحظة التي جافتني منذ أمد بعيد؟

بجدية شديدة، تساءل متصدر مجلسنا:

- ومن استخدم هذه القسيمة المزورة؟

انبرى القصير:

- قسيمة الطلاق وصلت إلى مكتبي بالبريد المسجل يا فندم، وقمت مع الوصي عليه بالإجراءات اللازمة بمعاونة الشرطة لاستعادته.. الوثيقة نفسها غير مزورة يا معالي المستشار، والواضح مما تدعي الأستاذة أن التوكيل الذي حُررت بناء عليه هو المزور.. لقد قمنا فقط بما أملاه علينا تسلمنا القسيمة!

مع انتهاء كلام ذي الأسنان السوداء، وجدت ابتسامة سمجة جديدة موجهة إليَّ من جهة رفيق نور الذي لا أستسيغه. زادت السماجة هذه المرة بما ظننته غمزة، وإن عمد أن تكون خاطفة من عينه تجاهي.

سمعت الرجل المهيب يقول:

- وصلت إليك بالبريد المسجل؟ وقمت بما أملاه عليك تسلمك القسيمة؟ تمام يا أستاذ!

سكت لحظات ثم عاد بصوت تملوء الجدية:

- تُضم صورة قرار سيادة النائب العام بخصوص تزوير قسيمة الطلاق إلى أوراق الدعوى..

توقف لحظة قبل أن يعود:

- تفضلي يا هانم..

استجابت الأنيقة لدعوته واستأنفت كلامها:

- لقد انضممت إلى نور في دعواها لأنه أبلغني مرارًا منذ مرضه بما يريده، فيما تبقى له من عمر. طلبه كان بمنتهى البساطة أن يكون وسط من يحب.. عرف أنه سيكون عالة، وأنه في الأغلب سيضني من يرعاه، فطلب مني وممن يحبونه أن يتحملوه وألا يتركوه وحيدًا؛ لذلك فما يشير إليه الدكتور سامي هو على غير رغبته المعلنة والتي أوصانا بها..

قامت نور من جديد وأضافت قائلة:

- أود أن أشير هنا إلى نقطتين. من ضمن التعاملات التي يريد سامي إلغاءها، كانت وديعة بمبلغ ضخم، كتبها أبي باسم سارة. وما لم يذكره أخي أنها قامت بإرجاع مبلغ الوديعة، وقت تصورت أنه قام بتطليقها فعلًا، وقبل أن تثبت أن القسيمة كانت مزورة.. أما النقطة الثانية، فهي اتفاقي أنا وسارة على انتقالها للعيش معنا في بيت أبي؛ حتى نتناوب على رعايته، ويكون له ما تمنى من أن يعيش وسط من يحب.

استمررت أسمع كلماتهم المتوالية دون قدرة لي على تمييزها.. لم أفهم عما أو عمن يتكلمون، ولكنني أحسست بإصرار واقتناع من كل طرف فيما يقول.. حاولت أن أعرف لِمَ نحن هنا، أو أن أميز من هذا الرجل ذو الهيبة، الذي يستجوبهم فيردون عليه بإسهاب وتبجيل. حين تكلمت السيدة الأنيقة، غمرني شعور غير مفسَّر بالارتياح.. ولما عادت إلى جلستها بجواري، وجدتني أمد يدي إلى جيبي، أخرج منها العلبة التركواز، نظرت إلى العلبة مليًّا قبل أن أمد يدي بها وأقدمها إليها، وفي ذهني علا صوت أم كلثوم تشدو..

لم أعرف سببًا لما أقدمت عليه وإن ارتحت حين أخذتها مني، ومالبثت أن أحاطتني بذراعيها وضمتني إليها، فغلبتني قشعريرة وانسابت مني الدموع دون أن أجد لها مبررًا. حين رفعت عيناي، انظر إلى وجهها، وجدته مبللًا أيضًا بدموع منهمرة. ومن بين الدموع استمررت أنا والست ندندن:

«سوف تلهو بنا الحياة وتسخر».

صوت سامي أصاب قلبي برجفة شديدة، وأنا أسمعه يقول:

- تفضل سيادة القاضي، وانظر ما الذي تستطيع تلال الأكاسيا أن توفره له..

ازداد التصاقي بمن كانت تحتضنني وبي هزة من إثر نطق سامي لكلماته، في حين وقفت نور تتحدث من جديد:

- انظر سيادة المستشار للهلع، الذي يصيبه حين يسمع اسم المكان، الذي قدم لك أخي صوره. ثمة إضافة أخيرة يا فندم، وهي أن أخي تناقش معه بهذا الخصوص، ورفض أبي اقتراحه، وأوصاني وسارة ألا نسمح بحدوث هذا أبدًا.. يمكنكم يا فندم سؤال الدكتور سامي عن رفض أبي إيداعه هناك.

من بعد نور، انتفضت الصهباء:

- أشار تقرير طبيبه المعالج ريتشاردسون إلى ما يحدثه ذكر هذا المكان في نفسيته.. لقد أصبح مجرد سماعه لهاتين الكلمتين سببًا في إحساسه بالوحشة والرعب. حتى مع انحسار ذاكرته، فإنه يخاف أن ينتهي هناك، فأي قسوة يا سيادة المستشار تجعلنا نرسله إلى هذه الدار، ولو كان، أحسن مكان في العالم. لاحظ سيادتك أنني أتحاشى حتى ذكر الاسم أمامه حتى

لا أزيد من هلعه.. تصور حضرتك أن يكون هذا الأثر الذي تراه عليه من وقع سـمعه للاسـم، فما بالك لو وجد نفسه هناك، حتى لو كان غير مدرك أو فاقدًا للشعور!! ألا يوقفنا رعبه الحالي عن إرساله؟!

استمر وجلي وزاده أنني لاحظت اختفاءها وعدم وجودها إلى جانبي.. احتـرت لِمَ لم ترافقنا حيـن غادرنا القاعة الأخرى. بـدأت أدير نظري باحثًا عن نانسـي، راغبًا فـي طمأنينة وجودها حولي. اسـتمررت في البحث دون جدوى، فلم يكن بالغرفة سوى من دخلوها معي.

عاد الرجل المهيب قائلًا:

- شيء أخير؛ هل به قدرة على الإجابة عن أسئلة لي؟

سمعت الأنيق يقول.

- حسب حالته الذهنية يا سيادة المستشار!!

عـمَّ السـكون المكان من جديـد، قبل أن يوجـه الرجـل المهيب حديثه إليّ:

- قل لي يا أستاذ؛ مع من تريد أن تعيش؟

كنت مستمرا في البحث عنها، وأنا ألومها أنها تركتني هكذا وأنا في أشد الحاجـة إليهـا. فكـرت أن هذا المهاب قـد تكون لديه قدرة علـى معاونتي، وإن تـرددت قليـلًا.. حاولت أن أتمالك نفسـي، وألا أتلعثم وركزت جيدًا، ثم سألته:

- نانسي؟

لم أفهم استغرابه ولم أفهم الدهشة التي أصابته، وهي يجول بنظره في الجالسين، ويسألهم:

- نانسي من؟؟؟؟

انبرى المجاور لسامي قائلًا:

- نانسي خيال يا سيادة المستشار.. خيال وهلوسة، كما أشارت التقارير جزء من الخَرف، الذي يعاني منه.. أو كما وردت في تقاريره الطبية: الديمنتيا..

أحسست بنور ترتعش وقد علا صوتها قليلًا:

- ليست هلوسة يا فندم... نانسي ابنة سامي!

أحسست بالعصف في صوتها وهي تكمل منفعلة:

- ثم إن أبي لا يخرف!! يعاني من مرض اسمه الأكثر تحضرًا: الديمنتيا لا الخرف... لا يخرف، أبي لا يخرف!

عاد ذو الأسنان السوداء صائحًا:

- ابنة الدكتور سامي، والتي لم يرها منذ عدة سنوات... هذه شهادة من إدارة الجوازات، تثبت أنها لم تزر مصر ولا زارته منذ تشخيصه... وتقرير الطبيب الأخير يثبت أنه يتخيل حوارات ممتدة معها... خيال وهلوسة يا حضرات المستشارين..

يسود الغرفة هدوء فلا يعلو فيها إلا صوت أنفاس الحاضرين.. أرى الرجل المهيب، متصدر الجلسة، يميل صوب من على يمينه، ويبدأ حديثًا

معه. طوال مدة تهامسهما، كان يغطي فمه بكف يده، كأنه لا يريد لأحد أن يقرأ شفاهه.. وحين فرغ كرر المشهد نفسه، ولكن هذه المرة مع الجالس إلى يساره.. حين انتهى، رفع رأسه، ونظر نحوي مليًّا، قبل أن يبدأ في تفحص وجوه جميع الموجودين. الحيرة التي كشفت عنها نظرته نحوي، جعلتني أظن أنني سمعته يقول لي، دون كل من بالغرفة:

- تزداد المعضلة تعقيدًا، حين تتساوى البدائل في مساوئها!!

من وسط الصمت المخيم على المكان، وجدته يأخذ نفسًا عميقًا، قبل أن يعلو صوته الرصين قائلًا:

- الحكم بعد المداولة.

ظللت أنا ورفيقتي التي جاورتني جلوسًا، في الوقت الذي وقف فيه كل من حولنا.. وجدت نفسي أتأمل في ابتسامتها الواسعة، والجمال الذي ينضح به وجهها. في نظرتها، وجدت دعوة إلى أن أشركها بعض حكمة الأيام التي تحب سماعها مني. بابتسامة مماثلة لابتسامتها بدأت، وأنا أستمتع بالشغف يكسو ملامحها في انتظار ما سأقول.. أعشق تعلقها بي واستحواذي على اهتمامها، حين أتحدث.. لم أرد أن أطيل انتظارها، وقد ازداد الفضول في نظراتها، فشرعت بسؤالها:

هل حكيت لك قصة ساعتي؟

شجعتني الدهشة التي كست وجهها على الاسترسال، وإن لم أنس أن أنبه عليها، قبل أن أبدأ:

- ولكن ما سأقوله سر.. لا تستطيعين أن تحكيه لأحد!

- أصدق حكاياتنا ترويها ذاكرة لعوب!

هشام الخشن

أظنها لم تسامحني قط على فعلتي، وسامي لم ينسها لي.. قرأت مرة أن الرجال ينسون ولا يسامحون، أما النساء، فإنهن يسامحن ولا ينسين.. أتظنين ذلك؟

لم أسمع لها ردًا يطمئنني..

هل كنت على حق، في رأيك؟

أدركت أن نانسي لا تدرك عما أتحدث..

ما قيمة الذكريات؟ وهي تأتي دائمًا في العربة الأخيرة من قطار الحياة.. هذا ما يظنه أغلب البشر.. لكن في «تلال الأكاسيا» يصطدم القارئ بإشكالية مغايرة تمامًا؛ إذ استطاع المؤلف هشام الخشن - ببراعة - أن يجعل الذكريات هي البطل الأوحد والأشهر لروايته.. بداية من أول سطر في الرواية حتى المشهد الأخير منها.. تدعونا، بحبكة فنية بارزة، أن نقاسمها رحلة قراءة الرواية، مضيفةً إليها متعة العشق واللقاء والفراق؛ لتخبرنا بإمكانية تحقُّق المستحيل في أن نحيا ذكرياتنا قبل أن نفارقها أو تفارقنا.



هشام الخشن: مهندس مدني وروائي مصري، من مواليد القاهرة عام 1963. له مجموعة قصصية بعنوان: «حكايات مصرية جدًا» 2010، وروايتا: «ما وراء الأبواب»، و«7 أيام في التحرير» 2011، وقد تحولت الثانية إلى مسلسل تلفزيوني، ورواية: «آدم المصري» 2012، ومجموعة قصصية بعنوان: «دويتو» 2013، ورواية: «جرافيت» التي صدرت عام 2014، ووصلت إلى القائمة الطويلة لجائزة البوكر في العام نفسه.





للشراء عبر موقعنا
store.almasriah.com

مكتبة الدار العربية للكتاب